(١)

تعالوا نجدد فيما بيننا حلف الفُضُول*

نحن نجتاز اليوم أزمة فى السلوك. وقد شاع التراخى وساد التهاون واجترأ أهل الفساد على القانون. وقد نشأت هذه الأزمة عن أننا لم نتعود بعد حياة الحرية والعدالة التى نعيشها اليوم.

ولكن أهل الفضل والخير والشرف والقانون كثيرون، وهم أكثر بمراحل من المفسدين ولو تعاقدوا وتعاهدوا لاستطاعوا عمل الكثير.

وقبيل البعثة المحمدية ساد مثل هذا الجو فى مكة فاجتمع ناس من أهل الفضل والخير وعقدوا فيما بينهم حلف الفضول. وهو ميثاق شرف.

وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف وأعجب به وقال إنه لو دعى إلى مثله بعد الإسلام لأجاب..

فماذا لا يتعاقد أهل الفضل والشرف والأصول منا ويتعاهدون على تجديد ميثاق الشرف أو حلف الفضول.

فى الفرنسية تعبير جاء على الألسن يعتبرونه أساسًا من أسس السلوك الإنسانى يقول: نوبليس أوبليج، ومعناه أن الشرف ملزم (بكسر الزاى) ومكلف فالشريف لابد له من أن يتحمل تكاليف شرفه لأن الشرف أو السؤدد ليس مجرد كلمة بل هما سيادة وللسيادة تكاليف والتزامات وتضحيات يتحملها صاحب الشرف دون تردد أو تكلف لأن هذا هو يمن السيادة والشرف ملزم نوبليس أوبليج..

ومن القواعد التى سار عليها العرب جاهليين وإسلاميين أن الرياسة تضحية وليست مغنما وأن الرجل الذى يتصدى للرياسة ويطلب السؤدد ينبغى أن يدفع تكاليف ذلك عن نفس راضية فإذا هو قصر فى ذلك لم

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ يونية ١٩٨١م .

يكن بأهل للرياسة أو السؤدد. وكان عليه أن يتخلى عما طلب لغيره ممن يستطيع القيام بمطالب الشرف..

و «النوبليس» فى العربية هو الشرف، والشرف فى كل شىء هو الارتفاع عن المستوى العادى، فالشرف من الأرض ما ارتفع منها عما حوله فأشرف عليه، والشرف فى الخلق هو الترفع عن الدنايا والصغائر والجود بالمال لمن يحتاج إليه دون تكلف أو سؤال، والتصرف فى كرم وعزة دون كبرياء والالتزام بمبادئ الأخلاق الكريمة، والعطاء فى وجوه الخير دون نظر إلى مقابل ورفع الهمة عن الخلق أى عدم النظر إلى شىء مما بأيديهم والبعد عن إذلال النفس فى سبيل كسب شىء أيا كان، وهذا كله خلق مصرى عربى أصيل..

وما عداه فليس من خلقنا أو طبعنا بل هو طارئ علينا يزول إذا نحن حزمنا أمرنا وقررنا زواله ويبقى ويتأصل إذا نحن تهاونا وتراجعنا واستسلمنا لما يفرضه علينا الأراذل منا.. والشرف أيضًا خلق السيدة أو خلق النوبليس فى تقاليد الفرنسيين والإنجليز ومن إليهم فى عصور الفروسية.

ونحن نقول إننا شعب أصيل عريق ونريد بذلك أننا شعب شرف وأخلاق كريمة على المستوى الرفيع، فأما أننا أصلاء فلاشك فى ذلك لأن كل البشر أصلاء، كلنا أبناء آدم وأنسابنا فى النهاية ترجع إليه، فليست هناك شعوب ترجع إلى آدم أبى البشر، وشعوب أخرى طفرت من الأرض من أصل غير آدمى، وعلى هذا المعنى فكلنا أصلاء، أما الذى نعنيه حقيقة بذلك فهو أننا قوم أصلاء فى الشرف والأخلاق السامية، وعندما نقول إن فلانا أصيلاً فليس من الضرورى أن يكون أبوه موسرًا أو صاحب منصب عظيم أو أنه يجرى فى تصرفه فى آثار آل بيته..

وأما أننا شعب عريق ففيه نظر، لأن العريق من الرجال هو - كما يقول ابن منظور فى لسان العرب عريق النسب أصيله. والعرب تقول

إن فلانا كعرق (بفتح الراء) له فى الكرم. والكرم فى المفهوم العربى هو الشرف بالمعنى الذى قلناه. وعندما نقول قرآن كريم نريد أنه الكتاب الذى يعلو على الكتب كلها ويشرف عليها من ذروة رفيعة لأنه كلام الله تعالى..

والمفهوم عندما نقول أننا شعب عريق أننا ننحدر من أصلابٍ كريمة عزيزة على أنفسها وعلى الناس تصرفت دائمًا عن نفس أبيَّة وترفُّع عن الدنايا والبُعد عما يشين الخلق، أصلاب تعطى ولا تأخذ وإذا كان لابد أن يأخذ الواحد منهم شيئًا فليأخذ بحقه مأخذ الرجل الشريف الكريم دون تحايل أو غش أو غضب أو كذب.

وقد كان هذا المسلك بالفعل مسلك بعض أجيالنا الماضية فى عصور القوة والعز والازدهار، ومن يرى آثار مصر القديمة يجد مصاديق ذلك بعينيه ويلمسها بيديه، فإن العمل الجميل لا يصدر إلا عن نفس جميلة، ولقد تحدث الفيلسوف الدينى الفرنسى تيلارد شاردان عن الشرف «النوبليس» حديثًا طويلاً قال فيه إن كل صنعة دقيقة متقنة لا تخرج إلا عن يد شريفة ونفس شريفة، فهى ليست صنعة بقدر ما هى أخلاق، قال إنه ظل صباحاً كاملاً يتأمل ساعة يد محكمة الصُّنع جميلة المنظر أنيقة الهيئة، وكان إذ ذاك فى واد من وديان جبال الألب الخضراء والبقر ترعى أمام عينيه فى هدوء الأبد، ومن حوله تنتشر بيوت الفلاحين الذين يجمعون قطع هذه الساعات بعضها إلى بعض ويضعونها بأيديهم الدقيقة فى هذه القوالب الجميلة، وقال فى نفسه لا عجب فمثل هذه القطعة البديعة من الصنعة المحكمة لا تصدر إلا عن نفوس شريفة تحمل عناء الصبر والإحكام لتخرج هذه الآيات الفنية العلمية.

وهذا أيضاً نستطيع أن نقوله عن أجدادنا من المصريين القدماء فإن إتقانهم لصنعتهم يدل على شرف نفوسهم لأن الإتقان أمانة نحو النفس ونحو الغير، ويعكس ذلك الإهمال فهو خيانة للنفس والغير، ومن هنا

فإننا نقول إن الإهمال ليس خلقًا مصريًا إنما هو خلق وافد علينا أو خلق تربى فينا فى عصور سادنا فيها غيرنا من ظلمة الغـزاة والمستبدين ومـع حكام ظلمة كهؤلاء لا مكان للأمانة فى التعامل وسنتحدث عن ذلك بعد قليل.

وأما أجدادنا مـن العـرب فقـد كـان الشـرف عندهـم جُمـاع الأخـلاق الفاضلة كلها، كان الواحد منهم يضحى بمالـه ليصون شـرفه أو عرضـه كما يقولون، وكانت الرياسة عندهم تضحيـة فـى سبيل الجماعـة، ولم يكن من المعقول عندهم أن الواحد منهم يطلب الرياسة لينهب الناس بل ليعطى مما عنده، ولا احتج فى ذلك بكلام الشعراء لأن الشـعراء يقولـون ما يريدون دون أن يكون كلامهم هذا حقيقة أو حجة، بل التمس الحجة والبرهان من واقع التاريخ، فكلنا نعرف مثلاً أن هاشماً بن عبد مناف بن قصى ورث رياسة قريش عن أبيه عبد مناف ولم ينازعه أحـد فـى ذلـك لأنه بدأ بإنفاق ماله فى سبيل أهل مكة، وكان تاجرًا عظيمًا ماهرًا يقول ابن سعد «فأصابت قريشًا سنوات ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشـام فأمر بخبز كثير خبز له وحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكـة، فهشم ذلـك الخـبز، يعنـى كسـره وثـرده، ونحـر تلـك الإبـل، ثـم أمـر بطبخها ثم كفأ القدور على الجفان فأشـبع أهـل مكـة، فكـان ذلـك أول الحيا بعد السنة التـى أصابتـهم فسـمى بذلـك هاشـمًا وفـى ذلـك يقـول عبد الله بن الزبعرى.

عمـــرو العُـــلا هشـــم الثريـــد لقومـــه

ورجـــال مكـــة مســنتون عجـــاف

وعمرو هو اسم هاشم ويقال إنه سمى هاشماً لأنه فعل ما ذكرنـاه وإذن فهاشم بن عبد مناف جد الرسول ﷺ استحق الرياسة لأنـها كـانت فـى نظره خدمة للجماعة وتضحية فـى سبيلها وتلـك هـى الأصالـة العربيـة التى نعنيها هنا، والتى ينبغـى أن نكـون ورثناهـا عـن أجدادنـا لنكـون

أصلاء مثلهم لأنه لا يكفى أن يكون أصلك كريمًا لكــى تكـون كريمًـا بـل لابد أن تكون أنت أيضًا كريمًا شريفًا، ونحن الذين نتحــدث اليـوم عـن الصراحة والأصالة ونملأ بها فَمَنا، نعانى اليوم ونشكو لأننا أبناء أصـلاء ونشعر فى أعماق نفوسنا أننا نسينا أن نكون نحن أيضًــا أصـلاء، وربمـا نكون قد استرحنا إلى هذا النسيان وعلقنا ما نشكو منه من متـاعب علـى مشاجب (شماعات) موهومة لكى نخلى أنفسنا عن المسئولية لأن الشرف مسئولية وحمله ثقيل ومطالبه كثيرة.

ولكننا ينبغى ألا ننسى أن حياة بلادنا ومستقبلها مرهونان بالمحافظة على أصالة الأجداد وشرف الأجداد، واليابــانيون الذيـن يتصـدرون أمـم الأرض فى أيامنا هذه وصلوا إلى ذلك ويزيدون عليه يومًا بعد يـوم لأنـهم ورثوا مبادئ الشرف عن أجدادهم من الساموراى..

والساموراى كانوا أشرافًا وقادة بالعمل قبل المـيراث ومـن قصَّـر منـهم فى تحمل مسئوليات الشرف فلم يكـن أمامـه إلا أن يقتـل نفسـه بنفسـه ليكلاً يمسى شرف النيبون وهو جنس اليابانيين كان عليه أن يشق بطنه بخنجره من أسفل إلى أعلى وذلك هو الهرا كيرى أنه ثمـن التقصـير فـى مطالب الشرف لأن الشرف ملزم..

«نوبليس أوبليج»

ومن غريب الأمر أننا تمسـكنا بقواعـد الأصالـة هـذه فـى أيـام الظلـم والفقـر والحكـم الغاشـم ونسـيناها فـى أيـام العـدل والاسـتقلال والحكـم القومى.

وافتح معى تاريخ الجبرتى واقرأ ما كـان النـاس يصنعونـه للمحافظـة على الأصالة المصرية العربية والتمسك بقواعـد الشـرف والمـروءة ومكـارم الأخلاق

كان الحكام لصوصًــا أو هم أضل سـبيلاً ولكـن الأمـة كـانت واعيـة لنفسها مفتوحة العينين، وكان لهذه الأمــة رؤسـاؤها مـن شـيوخ الأزهـر

وأهل المروءة والعدالة فى القاهرة وفى كل المدن والقرى كبارًا وصغارًا، وكان لكل حرفة قانون شرف يحمى الحرفة نفسها ويحمى حقوق أفرادها ويحافظ على مستوى العمل والأخلاق. كانوا يسمونه شيخ العشيرة عشيرة النجارين، وعشيرة النحاسين وعشيرة النساجين وما إلى ذلك، وكان شيخ العشيرة لا يتردد فى مواجهة الحكام وإرغامهم على الرجوع إلى الحق والإنصاف، وكان بكوات المماليك يخشون رئيس العشيرة لأنهم كانوا محتاجين إليه. فقد كانوا عصبة من الأشرار يحكمون بقوة السلاح ويحتاجون إلى الحدّاد والنجار والبيطار، وقد حكى الجبرتى أن سليمان بك السنجق المعروف بالتخين غضب على شيخ عشيرة السروجية وسجنه فى القلعة فتعصب له رجال عشيرته وامتنعوا عن عمل القرابيس لسليمان بك ورجاله، وكانت النتيجة أن تمكن منه خصمه مراد بك الأعرج وقتله، وأفرج عن شيخ السروجية. وكان هذا الشيخ من رجال الطريقة الرفاعية، وكذلك كان بقية السروجية، وقد ذهب مراد بك إلى جامع الرفاعية وصلى خلف الإمام وتبرأ مما فعله سليمان بك.

يقول الجبرتى إن شيخ السروجية هذا عبد الجليل البقعى كان رجلاً يعرف الأصول ويقوم بما عليه حيال أهل عشيرته ولو كلفه ذلك ماله كله، وكان يرعى كل أيتام عشيرته ممن يعجز أفراد أسرهم عن القيام بشئونهم حتى ضيع فى ذلك مالا لا يقدر، ومن عجائب أمره أنه كان يعطى كل ما عنده ويظل هو وأولاده دون عشاء فلا يلبث أن يدق الناس بابه ويقدموا إليه ما يكفى عياله ويزيد، وكان آية فى الفضل والشهامة والمروءة..

وبفضل أولئك الرجال الذين حافظوا على الأصول ظل الشعب المصرى متماسكًا قويًا دون أن يتأثر بفساد المماليك. ويخطئ من يظن أن شعب مصر كان فى تلك العصور ممتهنًا مهانًا، والعكس هو الصحيح. فقد كان

المهانون هم المماليك، فكانوا يقتلون بعضهم بعضا وينهبون بعضهم بعضا، لأنهم كانوا أرقاء مماليك وظلوا أرقاء وعبيدًا رغم السلطنة والعز والمال. وقد حكى ابن إياس فى تاريخه المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور أن الأمير بارسباى المنصورى الملقب ببندق تغلب عليه خصمه إسماعيل جان حلق بك فأمر رجاله بأن يجروه من رجله وأوقفوه أمامه حافيًا فجعل يبكى ويتضرع مثل السنوان، وعندما وقعت عينه على الشيخ البدوى القفاص عند إسماعيل بك استنجد به واستحلفه أن يتشفع فيه وقال له، أبوس رجلك. فغضب بارسباى المنصورى لذلك وأمر بقتله فى الحال لأنه عره للأتراك أمام أولاد البلد».

وفى الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك كلام جميل جدًا فى هذا المعنى فهذا الرجل العظيم حقًا عاش فى القرن الماضى أو عاش القرن الماضى كله تقريبًا ورأى مآسى ما جرى على شعب مصر من المصائب والويلات نتيجة للهبوط الأخلاقى المزرى وانعدام الشعور القومى عند الأسرة الحاكمة.

ومع ذلك فإن هذا القروى المصرى المهذب الأصيل يسمى كتابه «الخطط التوفيقية» نسبة إلى ذلك الصعلوك الخسيس محمد توفيق الذى لا يستحق اسمه مجرد الذكر فضلاً عن وضع اسمه على ذلك الكتاب القيم، ولكن على مبارك كان فلاحًا مصريًا فهو يعطى الحاكم حقه وإن كان الحاكم نفسه لا يستحق ذلك وفى مدخل الخطط، حيث يتحدث الرجل عن نفسه وأسرته وما أصابها فى أيام إسماعيل تتبين أصالة على مبارك، فقد كانت أسرة مبارك أسرة ثرية تملك أرضًا واسعة، وكان رجالها رؤساء الناس فى القرية والناحية، ثم جاءت حكومة إسماعيل «فرمت علينا أرضًا» أى أعطوهم بالقوة أرضًا لا تكريمًا لهم بل لكى يدفعوا عنها الضرائب فما كان من الأسرة كلها إلا أن هاجرت من قريتها إلى قرية أخرى لكى تتخلص من الضرائب الظالمة التى كانت الحكومة تفرضها على الناس، وفى موطنها الجديد بدأت الأسرة من

جديد، واستطاع الصبى على مبارك أن يشق طريقه ويصل فى العلم والوظائف إلى هذا المستوى الرفيع الذى جعله واحدًا من رواد النهضة الفكرية في عالم العرب كله.

والذى أريد أن أقوله أن على مبارك لم يعتمد على أنه أصيل من أسرة كريمة، بل أنشأ لنفسه أصالة جديدة قائمة على الأخلاق والعلم إلى جانب ما ورثه هذا الرجل من أسرته من قواعد الحياة عند أهل الأصول، ولم يتعب إنسان فى صنع نفسه كما تعب مبارك ولكنه عندما وصل إلى المراتب العليا استمر يبذل من نفسه وماله كما ينبغي على ابن الأصول.

وفى كتاب «الخطط التوفيقية» يحكى على مبارك الكثير عن الأصول وأبناء الأصول. ومن كلامه تفهم أن الثورة العرابية قامت لأنه كان فى مصر ناس يعرفون ما هى الأصول، وكيف يتصرفون تصرف أهل الأصول. وعرابى نفسه ولم يكن على مبارك راضيًا عنه. وكان رجل أصول، وخطابه للخديو فى يوم قصر عابدين خطاب مصرى أصيل. وخطبته المؤثرة التى قالها فى محطة سكة الحديد عندما نقلوه من القاهرة خطبة رجل أصيل يعتز بأنه فلاح بسيط من هرية رزنة، فلاح بسيط ولكنه أصيل، وثورته على الظلم ثورة أصالة.

عندما تقرأ مذكرات على مبارك ثم مذكرات شفيق باشا تدرك تمامًا أن الأصول المصرية العربية العريقة موجودة، وهى التى حفظت على مصر كيانها خلال عصور الظلم والظلام التى مرت بها، والذين قاموا بالثورات المصرية المتوالية وتعرضوا للأذى بل للموت فعلوا ذلك لأنهم أبناء أصول تصرفوا تصرف أبناء أصول، لأنه لا يكفى كما قلنا أن تكون ابن أصول بل لابد أن تكون أنت الأصول نفسها، لابد أن تكون بعيدًا عما يشين الإنسان الكريم، لابد أن تفكر فى غيرك قبل أن تفكر فى نفسك، فهذه هى الأصول، ومصر العظيمة هى التى تراها حافلة بأهل

الأصول بل هى تسير فى طريقها رغم كل شىء بفضل عدد قليل من أهل الأصول.

فلماذا لا تكون أنت منهم؟

كلنا نقول إننا أبناء أصول وأهل أصول وفى إحساسى أن هذا صحيح. لأنى أحس نبض مصر وأعرف عنها وعن طبيعتها - ربما - أكثر مما يعرفه غيرى لكثرة ما قرأت من صفحات تاريخها ولطول ما عشت هذا التاريخ، فلماذا - فى أيامنا هذه - نرى الدنيا كلها تتصرف من حولنا تصرف ناس لا يعرفون الأصول.. تصرف ناس أنانيين قصار النظر صغار النفوس.. فى إحساسى أن هذه موجة عابرة..ربما كانت رد فعل لأشياء كثيرة بعضها نعرفه وبعضها لا نعرفه، وهذا لايهم، لأننا نريد أن نتخلص من موجة اللا أصول هذه ونعود بتصرفنا إلى معدننا الأصيل. ولكن كيف؟.

إن السادة أو الأشراف أو المواطنين الصالحين من حولنا فى كل مكان. ومصر دائمًا بلد ناس أشراف طيبين.

حيثما تلفت حولى رأيتهم. إنهم كثيرون جدًا، وهُم الذين يعطوننى الأمل فى مستقبل هذا البلد، كلما سئمت نفسى وتعبت وتسرب اليأس إلى قلبى لقيت إنسانًا طيبًا ومواطنًا صالحًا وأخًا كريمًا فترتد إلى نفسى وأقول. خسارة أن يكون فى البلد كل هؤلاء الناس الطيبين ثم أضعف أو يتسرب إلى نفسى اليأس! هذا بلد عظيم وأصيل، ولابد له أن يتغلب على هذه الموجة ليسير فى طريقه كما سار من آلاف السنين..

إننا اليوم فى نور وحرية وسلام وحكومتنا اليوم أحسن من أى حكومة عرفناها فى تاريخنا إنها حكومة منا نحن الناس الطيبين.. ولكن الحكومات مهما بلغت كفايتها وصلاحيتها فهى لا تستطيع أن تفعل كل شىء فهناك أشياء تستطيع الحكومة أن تفعلها لأنها مسائل ضبط وربط. وهناك أشياء لا تستطيع أن تفعلها لأنها مسائل أخلاق وسلوك، والمشكلة التى نعانى منها مشكلة سلوك، لأن الأخلاق والحمد

لله بخير. ولكن السلوك هو الذى تغير بعض الشىء. والسلوك عند الكثيرين تغير هذه الأيام لأن ظروف الحرية التى نحياها اليوم غير عادية بالنسبة لتجربتنا التاريخية من مئات السنين فقد عشنا دائمًا مع حكومات قاسية عنيفة لا ترحم. وكنا لذلك نخاف . أما نحن اليوم مع حكومة رفيقة ورحيمة وأصيلة أيضًا. وهى تحدثنا عن «العيب» والحياء وتذكرنا بين الحين والحين بمكارم الأخلاق، بل هى جعلت لمكارم الأخلاق قانونًا هو قانون العيب..

ولكن هناك ناسًا لا يصلحون مع الحسنى فيحسبونها ضعفًا. فينطلقون يسيئون ويفسدون. وفى العادة يستطيع رجل سيئ واحد أن يفسد حياة العشرات ويعكر مزاجهم ويؤذى مصالحهم، وجريمة اقتحام بيت واحد وسرقة ما فيه تروّع حيًا كاملاً وتجعل الناس يتصورون أن اللصوص فى كل مكان.

وفى بلاد الغرب يملك الناس سلطات كبرى يعطيهم إياها القانون، فلو أن جارًا لك رفع صوت المذياع بالليل استطعت أن تستدعى البوليس ليوقع عليه العقاب. لذلك يسود هناك الهدوء فى الليل. ولا يكسر الناس قانون المرور فى كل لحظة. لأن القانون صارم والناس الطيبون أو الأشراف يتعاونون فى تنفيذ القانون. ولو أنك كنت فى طابور فى أوروبا. ثم خرقت النظام وتقدمت على غيرك لأعادك الناس إلى مكانك فى الحال. فإذا لم تعد وتبجحت وبعبعت أتاك رجل البوليس. وهو فى هذه الحالة لا يقول «معلهش» أو شيئًا يشبه ذلك. بل يخرج دفتر العقوبات والقلم ويوقع العقوبة.

لأن أهل القانون وأهل الشرف وأهل الأصول كثيرون هناك. وهم يتعاونون فيما بينهم على أهل الفساد والضلال.

وهذا هو الذى أدعو إليه فى ختام هذا المقال: أن يتعاون أهل الشرف والأصول فى تنفيذ القانون والحفاظ على النظام والنظافة. إنهم كثيرون ولأنهم كثيرون فإنهم يستطيعون الكثير.

كيف؟

والمروءة..

أعود بك إلى ماضينا إلى أصولنا، حتى يكون العلاج أصيلاً وناجعاً.. فقبيل البعثة النبوية لاحظ بعض أشراف مكة أن الظلم قد شاع في الناس فدعاهم رجل يسمى عبد الله بن جدعان إلى عقد «ميثاق شرف» سموه «حلف الفضول» أو حلف الفضلاء اشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه. وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته فسمت قريش هذا الحلف «حلف الفضول» وقد كان لهذا الحلف أثر كبير في تحسين وإصلاح ما فسد من أخلاق المكيين بسبب طغيان أهل الفاسد.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد شهدت في دار عبد الله ابن جُدعان (بضم الجيم) حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم. ولو أدعى به في الإسلام لأجبت».

وهذا هو الذي أدعو إليه في هذه السطور: أن يتعاون أهل الفضل والأصول والشرف على أن يكونوا حلفاً واحداً في سبيل الخير. حلف شرف وميثاق إنسانية لا دخل له في السياسة يعمل أفراده على إقامة القانون وحماية الناس والوقوف في وجه المفسدين.

وفكرة أطرحها للمناقشة. لأننا لا نكتب ما نكتب لمجرد الكلام بل لأن لنا هدفًا ساميًا في بلوغه. والقلم في نفسه رسالة ورسالة القلم وصاحب القلم هي الخير والعدل والفضل والإصلاح.

وأدع الفكرة هنا.. لأعود إليها فيما بعد.

أعود إليها لأنها واجب.. لأنها إلزام.

وكما قلت في مطلع هذا الحديث.. إن الشرف

إلزام: نوبليس أو بليج.

(٢)

الأوسطى شاى وفن النكد* !

لابد أنها موهبة ننفرد بها من دون مخاليق الله: تحويل النعم إلى نقم، والخيرات إلى مصائب، حتى الأولاد - وهم زينة الحياة الدنيا - أصبحوا مشكلة قومية عامة.. والشاى الذى يصنع منه غيرنا شراباً منعشاً جميلاً.. جعلنا منه كارثة صحية ومشكلة اقتصادية.

للمرة الرابعة خلال ساعتين ذهبت إلى الأوسطى هريدى فى دكانه أتعجله ليصلح لى شيئًا فى بيتي، وللمرة الرابعة كذلك قال لى وكوب الشاى فى يده:

حاضر.. لما أشرب الشاى.

وفى المرة الرابعة قلت له وأنا أجتهد فى ضبط نفسى، ففى هذه الأيام لا يحمد الإنسان مغبة غضب الأوسطى هريدى أو أى أوسطى آخر.

فقد أصبحوا سادة عظامًا لا يقل دخل الواحد منهم عن ثلاثين جنيها فى اليوم، تصفو له فى آخر النهار على عشرين بعد دفع أجور العمال، ورجال يحمل فى جيبه فى آخر كل نهار ٤٠ جنيها ليس بالرجل الهين، ولا تستطيع أن ترفع صوتك فى مخاطبته، فقد تفتحت عليه أبواب الرزق من حيث يحتسب ولا يحتسب، وأنت محتاج إليه وهو غير محتاج إليك وإذا غضبت أنت فإن ذلك لا يعنيه فعنده بذلك عشرون آخرون ينتظرون منه كلمة عطف، أما إذا غضب عليك فما حيلتك وعندك بلاعة مسدودة ورشح ماء فى الجدران؟ فليس أمامى وأمامك إلا التأدب والتحشم والترفق فى خطاب الأوسطى هريدى أو أى أوسطى آخر يرتدى قميصًا وبنطلونًا فى لون الهباب، فقد تغيرت الدنيا وارتفع ناس وهبط ناس، ولا محل للشكوى فهذه حال الدنيا..

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ سبتمبر ١٩٨١م .

وما دمنا جميعا قد جرفتنا حمى الدراسة الجامعية، فأرسلنا أولادنا في طريق الشهادة الجامعية، وهو طريق الفقر وقلة الدخل والنفخة الكاذبة، فمن حق هؤلاء الذين كانوا أبعد نظرًا منا وساروا في طريق الصنعة والعمل اليدوى أن يفوزوا في النهاية، لأن العصر كله هو عصر الصنعة اليدوية والخبرة الفنية بكل مستوياتها من السباكة إلى الحاسبات الألكترونية، فالأوسطى هريدى، وكل أوسطى آخر، يقف على أول السلم الذى ينتهى فى أعلاه بالدكتور فيرنر فون براون الذى صنع أول صاروخ ذاهب للفضاء.

أما أبناؤنا فقد وضعناهم فى أول طريق نهايته ابن المقفع والقاضى الفاضل من أرباب القلم والفكر، وقد انتهى فيما يبدو عصر ابن المقفع والقاضي الفاضل، بل انتهى عصر أحمد شوقى، ونحن اليوم فى عصر أصحاب المفكات والزرديات والشواكيش والكماشات. والأيام دول، ولا معنى للشكوى فهذه حال الزمان.

وأعود إلى الأوسطى أو المعلم هريدى. قلت له فى لهجة استعطاف تناسب المقام: يا معلم حرام عليك.. أربع مرات آتيك وفى كل مرة تردنى خائب السعى، وهذا الكوب فى يدك، ألا يفرغ أبدا؟

كيف لا يفرغ يا حضرة.. هذا هو الكوب الرابع.. أصلى لا مؤاخذة لا أبدأ العمل إلا بعد أربعة أكواب شاى أو خمسة. والفول، ولا مؤاخذة، جامد على المعدة، ولابد له من الشاى..

– يا حضرة المعلم أنا عندى شاى وسكر وكل ما تريد.. تعالى وأنا أقدم لك ما تشاء من أكواب الشاى..

– وهل هذا الذى تشربونه أنتم يسمى شايًا؟. هذا ماء ولا مؤاخذة، ماء ساخن بالسكر.. أما نحن فلا يعدل دماغنا إلا الشاى الكيف.. الشاى الثقيل المحترم، والإبريق الذى تراه يغلى بالشاى على النار من ساعتين، وكلما قل الماء أضفنا ماء وشايًا، وكل كوب شاى لابد له من

أربعة أو خمسة من قوالب السكر.. أصل ده ولا مؤاخذة شـاى معلمـين.. شاى الصنعة..

– تفضل معى أرجوك.. ها أنت ذا قد فرغت من الشاى.

– حتى يأتى الصبى ليحمل لى صندوق العدة..

– أنا أحمل لك صندوق العدة.

– وهل هذا يصح يا حضرة.. نحن ناس على قد حالنا. ولكن «برضه عندنا نظر ومفهومية»..

وحملت صندوق العدة وقلت.

– وأنا أيضًا عندى نظر ومفهومية، ومفهوميتى تقول إننى ينبغـى أن أحمل لك هذا الصندوق، وأعمـل لـك الشـاى الـذى يرضيـك.. المـهم أن أتخلص من تلك البالوعة التى تكاد تفسد لى بيتى..

وأمام هذا لم يستطع المعلـم العظيـم إلا النـهوض معـى، وحمـل هـو الصندوق وسار معى متكاسلاً، وفى الطريـق مـر بالبقـال وطلـب علبتـين «سوبر» وبحث فى جيوبه فلم يجد نقودًا فدفعت له ثمنهما خصمًا على الحساب، ودخل البيت معى ونظر إلى البالوعة وفتح صندوق العـدة فلم أر فيه إلا مفكًا وكماشة وقطعة حديد صدئة يسميها «أجنة».

– هذه هى كل العدة يا معلم..؟

– أصل.. ولا مؤاخذة الصبيان يسرقون العدة ويبيعونها.

– وبهذه الأشياء ستصلح لى البالوعة والصنبور؟

– بهذه الأشياء أبنى لك عمارة..

وبينما كان يعمل، ذهبت لأعمل له الشـاى، بحسـب تعليماتـه كـان على أن أضع له معلقتى «شـاى ناشـف» لكـل كـوب، ولابـد أن أتـرك الشاى يغلى عشرين دقيقة على الأقل..

وأخذت له كوبًا من ذلك الحبر، فوضع فيه أربع ملاعـق سـكر، ثـم ذاقه فلم يعجبه، وأضاف معلقة خامسة، وبينما كان يعمل سألته:

– كم ستتقاضى منى يا معلم؟

– اللى تدفعه.. لا فرق..

– أريد أن أعرف يا معلم..

– علشان خاطرك وانسانيتك ١٠ جنيهات.. من غيرك أخذ عشين. أين تذهب نقودك يا معلم؟.

– نقود؟ وأين هى النقود؟.. ثلاثة بالله العظيم ما كان فى جيبى هذا الصباح إلا ٥٠ قرشا تركتها للحرمة ولا مؤاخذة وخرجت على فيض الكريم..

وفى ساعة كان قد فرغ من العمل. معظم الوقت ضاع فى الذهاب والمجيء وشرب الشاى ومحاولة العمل بدون «عدة، وكل دقيقتين يسأل: عندك سلك؟ عندك شاكوش؟ ألا أجد عندك مفتاحًا إنجليزيًا؟.

وفرغ من عمله لا أدرى كيف. وأخذ الجنيهات العشرة، ثم مضى يحمل الصندوق الفارغ. لقد دخن خلال الساعة ثمانى لفائف سوبر، وشرب ثلاثة أكواب حبر، واستهلك ربع علبة السكر أى أقل من ربع الكيلو بقليل. ولم أتجاسر على خصم ثمن السجائر، وظن هو أننى نسيت، وسر بذلك.

وقضيت بعد ذلك أكثر من نصف ساعة أنظف ما خلفه هذا الأوسطى من قذر وطين وقطع قطن وأعقاب سجائر. وعندما أردت غسل إبريق الشاى لاحظت أن ما فيه من التفل يسد بلاعة الحوض، فجعلت أفرغه شيئًا فشيئًا. ثم أفرغت التفل فى ورق لففته ووضعته فى صندوق القمامة، وعدت إلى مكتبى وفى يدى كوب شاى من النوع الذى أشربه. إنه ليس ماء ساخنا بسكر بل هو الشاى كما ينبغي أن يشرب.. شراب كأنه ذهب مورد فى فنجان أنيق..

وأردت أن أعمل، ولكن موضوع شاى الأوسطى هريدى شغل بالى.

إنها ليست مسألة شاى كالحبر أو شاى كالهباب. إنها فى الحقيقة مشكلة قومية. ولأنها مشكلة قومية فقد أذنت لنفسى. أن أدير عليها هذا المقال:

فإن إنجلترا مشهورة بأنها أكبر بلاد الدنيا استهلاكًا للشاى، ومع ذلك فإن متوسط استهلاك كل إنجليزى من الشاى فى العام يبلغ عشرة أرطال أى نحو خمسة كيلو جرامات.

ومتوسط استهلاك الفرد عندنا من الشاى يصل إلى عشرة كيلو جرامات فى العام..

ونحن ندعم الشاى بحوالى ٢٠٠ مليون جنيه من المال العام، والشاى الثقيل يحتاج إلى السكر الكثير، وقد قرأت فى الإحصائيات أن دعم السكر وحده يصل إلى ٣٥٠ مليون جنيه، ومعظم هذا السكر يذهب فى الشاى، لأن المصرى العادى لا يعرف الحلوى اليومية فى الوجبات. ونادرًا ما يعدون فى البيت شيئًا بالسكر إلا فى رمضان..

وهذا الاستهلاك غير المعقول من الشاى والسكر جدير منا بالتأمل، لأننا حتى لو صرفنا النظر عن العبء المالى الذى نتحمله فى سبيل الشاى فإنه تبقى النتائج الوبيلة على الصحة العامة من جراء هذا الحبر الذى يسمونه شايًا ويستهلكونه باللترات..

فإن الشاى المحضر بهذه الطريقة هو أسوأ الشاى وأضره بالصحة، لأن الشاى يتكون من كافايين وتايين وزيت عطرى هو الذى يعطى الشاى الرائحة الزكية والطعم الجميل..

وفى الدقائق الثلاث الأولى من غليان الشاى يخرج الكافايين والتايين والزيت العطرى، وكلها فى هذه الدرجة من الغليان لا تضر أى عضو من أعضاء الجسم، بل تنشط وتصلح المعدة والأمعاء..

فإذا استمر الغليان انعدم الكافايين وتحول التايين إلى مادة سامة عسيرة الهضم تتعب الكبد وتتعب الكلى وتتقرح منها جدران الجهاز الهضمى كله..

ويضاف إلى ذلك أن أولئك الناس لا يصفون الشاى بل يشربونه بالتفل، وبعضهم يضع الشاى الجاف فى الكوب نفسه ويسميه «كشرى» وهو يشرب فى الحقيقة تفلاً.. وهذا التفل يلتصق بمجرى البلعوم وجدران المعدة ويسبب التهابا فى الأغشية..

ونضيف إلى ذلك أنهم نادرا ما يغسلون الأوانى غسلاً جيدًا فى محل الأوسطى هريدى يوجد جردل ماء يغسلون فيه الأكواب من الصباح إلى المساء، وهم يغسلون فيه أيديهم أيضًا.. مع غروب الشمس يصبح لون ماء الجردل فى لون الهباب، وغريب أن أولئك الناس لا يفكرون قط فى شيء يعملونه، فهم يغسلون أيديهم ووجوههم (وعيونهم) من ماء الجردل. وفى النهاية يتوضأ منه الأسطى ويدخله فى عينيه وفى خياشيمه وفى فمه. والجردل نفسه مخزن أقذار وأمراض..

وليس لديهم فى المحل فوطة أو بشكير، إنما هم يجففون وجوههم وأيديهم فى أكمامهم، وفى مناديل لا تغسل إلا من شهر إلى شهر، وبعضهم يستعمل ورق الجرائد.. وكل ذلك من الشاى وبلاوى الشاى..

وهناك مشكلة السكر..

ومتوسط استهلاك الأسرة المصرية العادية من السكر - فى المدن والأرياف - كيلو جرام فى اليوم الواحد. يذهب معظمه فى الشاى «رقم لا يصدق»..

والسكر الأبيض فيه غذاء ولكنه أضر شيء بالجسم لأنه لا يهضم إلا بفيتامين «أ» فهذه الكميات من السكر تستنزف هذا الفيتامين من الجسم. وفيتامين «أ» أساسى للقلب والجلد والبصر وأشياء أخرى..

لأن الأشياء كما خلقها الله تكون متكاملة ولا تضر. فأنت إذا طحنت القمح بقشره وصنعت منه الخبز كانت فيه فائدة كاملة لجسمك، ولا ضرر فيه على الإطلاق..

فإذا أنت قشرت القمح لتحصل على الدقيق الأبيض أضعت معظم فائدة الخبز. وفى بلاد العرب جميعا يعرفون أن الخبز الأسمر أو الأسود. وهو خبز القمح الكامل (فول كورن بريد) أصح للجسد مائة مرة من الخبز الأبيض..

ومثل ذلك يقال فى الأرز..

فإذا أنت طبخت الأرز بقشره كان مفيدًا لجسدك.. أما إذا قشرته تحول إلى غذاء حامضى التركيب يضر الجسد..

وفى أوروبا وأمريكا يحذرونك من الأرز الأبيض..

وأهل شرق آسيا يعيشون على الأرز. ولكنه الأرز الكامل. الأرز الأسمر. وهو صحة وعافية..

لأن الله سبحانه خلق الأشياء صحية وكاملة التركيب.. وعندما نتدخل فيها نحن نفسدها ونضيع قيمتها..

وغريب أن جمهورنا فى مصر - والعالم العربى كله - يستعمل كل شىء استعمالاً خاطئًا. لأن أحدًا لا يبصر الناس بحقائق المعيشة والغذاء والتعليم والصحة تبصيرًا حقيقيًا..

والفلاح أو العامل الذى تراه شاحب الوجه نحيلاً كالعود أو سمينا كالبرميل لا يشكو من قلة الغذاء بل من سوء التصرف فى الغذاء، فالغذاء والحمد لله وافر بكميات تزيد على المطلوب..

وبعضنا يظن أن أولئك الناس أصحاء. ويتعجب من استطاعتهم النوم فى الحقل أو على قارعة الطريق ولو فحصت أجسادهم لوجدتها معارض أمراض..

واذهب إلى العيادة الخارجية فى أى مستشفى أو وحدة صحية تر الأعاجيب من الأمراض. وتسعون فى المائة ممن يروجون ويغدرون أمامك مرضى بالكبد أو الكلى أو الطحال أو بـها جميعا. وكلهم دون استثناء مرضى. إما بالمعدة وإما بالأمعاء إلى جانب ما ذكرناه! وكل ذلك من سوء التصرف فى الغذاء. فمن ناحية نحن لا نبصرهم التبصرة الكافية. ومن ناحية أخرى هم يرفضون التوعية، والأوسطى هريدى لن يقتنع قط بأن الشاى الذى يشربه سم الشاى الذى أنصحه به صحة وعافية..

وقد كان عندى طباخ، وكنت أقول له: تناول غداءك ثم اغسل الأوعية والمطبخ ثم نم بعد ذلك..

ليه؟..

لأن النوم عقب الأكل مباشرة ضرر جسيم بالصحة.فأنت فى أثناء غسيلك للمواعين والمطبخ تعطى معدتك الفرصة للتصرف فى الطعام، ثم تنام قيلولتك بعد ذلك على صحة..

ولا أذكر أنه استمع إلى نصيحتى قط.. يملأ بطنه ثم ينبطح وينام كالجاموس. ثم ينهض ليغسل المواعين. ويومًا بعد يوم اضطربت معدته وتلبكت أمعاؤه وتمدد طحاله، وفى سن الخمسين كان نحيلاً هزيلاً، وكل شىء فيه مريض. وبكل بلادة ذهن وتلامة وجه يقول: هذه قسم يا دكتور.. كل شىء مكتوب. مكتوب لى أن أمرض، والشفاء من الله سبحانه وتعالى..

ونعود إلى الشاى وإلى ملايين الأوسطى هريدى وكل منهم تستطيع أن تسميه الأوسطى أو المعلم شاى..

□□□

هؤلاء الناس غذاؤهم كله وشرابهم كله شاى. لأن مقادير السكر التى يزدردها الواحد منهم مع الشاى بالإضافة إلى السجائر تشعره بشبع كاذب. وهو عندما يتناول غداءه – طعمية كان أم كبابًا – فإن جسده

لا يستفيد من ذلك. لأنه مشبع بالسكر الذى يجرد جسمه من دفاعات الفيتامينات..

وفى العراق تسبب الإقبال الشديد على الشاى فى كارثة قومية اقتصادية. إلى جانب كوارثه الصحية، فإن الفلاح العراقى كان يعتمد فى غذائه أساسًا على التمر، والعراق أكبر بلد منتج للتمر فى الدنيا. والتمر غذاء كامل يستطيع الإنسان أن يعيش عليه. ففيه الكفاية من الكاربوهيدرات والبروتينات والسكر وشىء كثير من الفيتامينات، ولهذا فإن سكر التمر صحي يتم هضمه دون الحاجة إلى فيتامينات..

وكان الفلاح العراقى صحيحًا عفيًا بالتمر أساسًا. مضافًا إليه ما تيسر من لبن ولحم وخضر وفاكهة بين الحين والحين. وكان العراق يستفيد من تموره على أحسن صورة. كان العراقيون يستهلكون ٦٠ فى المائة من المحصول والباقى كانوا يصنعونه ويصدرونه..

ثم جاءت لعنة الشاى..

وتعلم الفلاح العراقى شرب الشاى الأسود بالسكر الكثير..

وكما حدث فى الريف المصرى عندما تحول معظم كسب الفلاح إلى شاى يسيل من فم الغلاية كوبًا بعد كوب، فكذلك حدث فى العراق. بالإضافة إلى ما نعرف من تطرف العراقيين فى كل شىء. فى دراسة لهيئة الأغذية والزراعة تبين أن الفلاح العراقى يشرب فى اليوم حوالى ٢٠ كوبًا من الشاى ومعها ٨٠ قطعة من السكر كل يوم أى أنه يزدرد نحو كيلو جرام من السكر فى اليوم. ومع هذه الكمية الهائلة من السكر أصبح الفلاح لا يطيق النظر إلى التمر وهبط الاستهلاك المحلى من التمر إلى العشر، ولم يجد العراق من يشترى ذلك الفائض الضخم واضطر إلى إعطائه للصين بثمن التراب، ليحصل بدله على شاى ومصنوعات صينية لا تذكر. بعضها سكر البنجر. وهذه واحدة من مصائب الشاى هناك وهى شبيهة بمصيبته عندنا..

وقد خطر ببالى أكثر من مرة سؤال: لماذا ندعم الشاى؟ ما الذى نستفيده من استيراد الشاى بالدولارات وبيعه للمستهلك بالقروش؟..

وماذا سيحدث لو لم يجد الفلاح والصانع المصريان كل الشاى الذى يطلبه مزاجهما؟..

سيكتفى بنصف الكمية بل بربعها..

والشاى ليس غذاء. إنه مزاج مثله فى ذلك مثل الدخان. فكيف نضع الضرائب العالية على الدخان وندعم سعر الشاى لنخفضه؟..

فإذا هبط استهلاك الشاى إلى الربع هبط استهلاك السكر إلى الربع. وفى هذه الحالة سيكفينا سكر بلادنا، وما لم نفعل ذلك فسيظل بلاء الشاى فى زيادة..

وبعد.. فإنه لمن العجيب أن لدينا ملكة تحويل كل نعمة إلى نقمة، فالشاى وهو شراب منعش لطيف ومفيد إذا تناولناه باعتدال، حولناه إلى كارثة على جيب المواطن وخزانة الدولة والصحة العامة، والشاى فى بلاد الغرب وفى إنجلترا خاصة زينة ومتعة وقيمة، وإذا كان الصينيون هم أول من زرع الشاى فإن الهنود هم الذين جعلوا منه تجارة، واليابانيون تأنقوا فيه وجعلوا تناول الشاى حفلاً مقدسًا له طقوس وتقاليد، والإنجليز جعلوه احتكارًا دوليًا لهم أيام الاستعمار، وجعلوه المشروب الأول فى الدنيا..

وابتكروا تقليد شاى الساعة الخامسة بعد الظهر وكانوا أول من صنع أطقم الشاى وفناجين الشاى الأنيقة وآنية الشاى الفضية، وهم أول من ابتكر مشارب الشاى العامة وحفلات الشاى، وأكلوا معه الكيك، وهم أيضًا الذين صنفوا الشاى من شاى القطفة الأولى الذى يتضوع عطرًا وهو المعروف بالبيكوى إلى شاى القطفة الثانية (البيكوى ساهزى) وشاى القطفة الثالثة ثم شاى التراب (بيكوى دست) ومن هذين الصنفين الأخيرين معظم ما يشرب من الشاى عندنا..

والشاى يسمى فى شمال الصين تاى، ومنه أخذ الأوربيون (عدًا البرتغال) اسم الشاى فسموه تى فى صور مختلفة، وهو يسمى فى جنوب الصين باسم تشا ومنه جاء اسم الشاى عندنا ولا ينطقه على هذه الصورة من أهل الغرب إلا البرتغاليون. فهم يقولون تشا..

والبلد العربى الوحيد الذى يستعمل تسمية تاى هو المغرب. فهناك يسمونه الاتاى. ومعظم استعمالهم من الشاى الأخضر..

والشاى الأحمر أو الأسود والشاى الأخضر كلها من شجرة واحدة، فأما الشاى الأحمر فهو المخمر وذلك أنهم بعد أن يقطفوه يجففونه ثم يندونه بالماء ويدعونه يتخمر ساعات فتلين أعصاب أوراقه وتتكسر خلاياه ويسود لونه ثم يدعونه يجف فى الشمس أو يجففونه يحمصونه فى أفران خاصة لكى يجف ويصلب ثم يعبئونه. أما الشاى الأخضر فلا يخمر بل يقطف ويترك ليجف ولا يندى بعد ذلك وقد يحمص لتسهل تعبئته..

□□□

ولو كنا عقلاء واستخدمنا الشاى بعقل لكانت لنا فيه متعة وصحة..

ولكن ما العمل مع الأوسطى هريدى أو الأوسطى شاى وكل أوسطى شاى أو المعلم شاى أو العم شاى وبقية الشلة التى لا يمكن أن تسعد بشىء من نعم الله – وما أكثرها – ولابد لهم من أن يجعلوها نكدًا..

وهل فى الدنيا نعمة هى أجمل من الأولاد؟ أليسوا زينة الحياة الدنيا؟!..

فانظر والله كيف أصبح الأولاد نقمة وخطرًا يهدد البلد. والفضل فى ذلك للأوسطى هريدى.. الأوسطى شاى أقصد، وأشباهه وشركاه الذين جعلوا حفلات زواجهم معارك تطلق فيها أعيرة النار وتصيب الأبرياء وأقاموا الزينات سفلقة لأنهم لابد أن يسرقوا التيار.. ولابد لهم من أن ينصبوا الميكروفونات ويقلقوا مخاليق الله، لأنهم – ولا مؤاخذة – مبسوطون!..

(٣)

كله تمام يا أفندم*

الذين يقولون: كله تمام يا أفندم، لأنهم جبناء لا يجرءون على مواجهة رؤسائهم بالحقيقة يقترفون جناية خطيرة في حق وطنهم، وقد جروا علينا بها كوارث أليمة، ونحن لا نريد أن يخدعنا جبان بعد اليوم، فلاشيء ينفعنا غير الحقائق، وليست هناك في الواقع حقيقة مرة، لأن الحقائق كلها نافعة، والكذب وإخفاء الحقائق هي أمر الأشياء جميعا وأضرها بمصالح هذا الوطن، وعبارة: كله تمام يا أفندم في ذاتها مهينة لأنها تحمل طابع السخرية ممن تقال له لكثرة ما خدعنا بها..

لست أول من أنكر هذه العبارة وتخوف منها.

ففي رواية زديج أو «صديق» وهي من أشهر روايات فولتير وأكثرها ذيوعًا بين الناس وأمرها سخرية، يردد هذا الكاتب الفيلسوف الساخر عبارة تقول على لسان الوزير: «إن كل شيء يسير على أحسن حال في أحسن البلاد» وأحسن البلاد هنا هي فرنسا التي رمز لها فولتير بدولة فارسية، وزديج هو الوزير الذي يحرص دائمًا على أن يطمئن الملك - والمقصود هنا ملك فرنسا - إلى أن كل شيء يسير على أحسن حال في مملكته التي هي أحسن الممالك، ولم تكن فرنسا إذ ذاك بأحسن الممالك، ولا كان أي شيء فيها يسير على ما يرام، فقد كانت فرنسا كلها على أبواب ثورتها التي كان فولتير وروسو وأمثالهما يحسون بأنها قادمة، لا على سبيل التنبؤ، فإن الأديب الحق لا يتنبأ، ولكنه يعرف أن الأمور إذا سارت في طريق السوء دون علاج فلابد أن يؤدي الأمر إلى كارثة، وإذا كان كبار رجال الدولة يحرصون على خداع سيدهم ويوهمونه بأن كل شيء يسير على خير حال، فإن الأمور لابد أن تنتهي على أسوأ حال..

---

* نشرت هذه المقالة في ٢٩ نوفمبر ١٩٨١م.

وفولتير سخر من فرنسا ما قبل الثورة فى كل سطر من سطور «زديج» ولكن قوله على لسان زديج فى كلامه إلى الملك: مولاى، أن كل شىء يسير على خير ما يرام فى خير البلاد.. هذه العبارة أصبحت من أشهر ما قال أهل الفكر والنظر البعيد فى مجال السخر من خداع المرءوسين للرؤساء وإخفاء الحقائق الأليمة عنهم وراء عبارات كلها زيف ونفاق..

□□□

وكلما سمعت عبارة «كله تمام يا أفندم» ترددت فى خاطرى عبارة فولتير وما تخفى وراءها من الحكمة والموعظة. ولى فى ذلك قصة أحكيها لأن كل مسئول عن عمل يتعرض لمثلها كل يوم، ولهذا فهى تنفعه..

فقبل ثلاثين سنة قررت كلية الآداب بجامعة القاهرة أن تقيم يومًا يسمى باليوم الجامعى على غرار ما تقيمه الجامعات الألمانية كل عام من يوم أكاديمى وهو يوم يقيمونه قبيل نهاية الموسم الربيعى من مواسم الدراسة الجامعية المعروفة بالسمسترات، وقبل إجازة الصيف، يجتمع فيه أهل الجامعة كلهم طلابًا وأساتذة بما فيهم مدير الجامعة ومساعدوه وكل الموظفين الإداريين، كل من يعملون فى الجامعة حتى البستانيين والسعاة والعاملين فى النظافة، ويتجمعون بعائلاتهم، ويحضر كل منهم ما يستطيع من الطعام، ويجلسون على موائد واحدة: المدير إلى جانب الساعى إلى جانب الأستاذ والطالب، وزوجة المدير فى وسط الطالبات ونساء النظافة، ويجرى الحديث بينهم عائليًا صرفًا، والشىء الوحيد الذى لا يجوز الكلام فيه فى ذلك اليوم هى شئون الجامعة الرسمية. فلا كلام فى علم أو بحث أو وظائف أو تعيينات، أو شكاوى أو امتحانات.

فالمدير يسأل زوجة الساعى عن أولادها وأحوالهم ويحملها التحية والتمنيات لهم، والساعى يسأل زوجة الأستاذ على الروماتيزم الذى

تشكو منه، ويحاول أن يصف لها وصفة بلدية، والطالب يحدث المدير عن والده يعمل فى السكة الحديدية..

اتفقنا على إقامة يوم كهذا بادئين بكلية الآداب كتجربة. فإذا نجحت وسعنا مجالها فى العام التالى لتشمل الجامعة..

ووافق عميد الكلية ووافق مدير الجامعة وكان طبيب أطفال مشهورًا، وجعلونى مسئولاً عن التنفيذ كله، لأننى كنت صاحب الفكرة..

واخترت مساعدين لى من الطلاب، وكان المفروض أن يشمل اليوم مباريات ومسابقات رياضية بين الأساتذة والطلاب وعرضًا مسرحيًا ومسابقات ذات جوائز ومونولوجات و«نمر» فكاهية من النوع اللطيف الذى يحسنه الشباب..

ومضت الاستعدادات على قدم وساق..

وبلغ من سرور الجامعة بالموضوع أن تبرع بمبلغ كبير من ماله يغطى نصف نفقات وجبة الغداء التى تقرر أن يقيمها مطعم كباب مشهور بدلاً من أن يضطر الناس إلى إحضار الطعام معهم، وكان المفروض أن يدفع لكل عضو خمسة قروش من منحة المدير ويدفع هو الخمسة الأخرى، أما السعاة والفراشون فكان المفروض أن يدفع لهم المدير الوجبة الكاملة..

وقبل الموعد بأسبوع رأيت أن أتأكد بنفسى من أن كل شىء يسير على خير وجه فقال لى الطلاب: لا داعى لإتعاب نفسك، كله تمام يا أفندم..

قلت: لا بأس. أتعب نفسى الآن خير من أن أتعب الناس وأجعل نفسى مضحكة الجامعة يوم الحفل..

وذهبت إلى ملعب الجامعة فلم أجد أى استعداد، ورئيس اللجنة الرياضية يقول: هذه مسألة تحتاج إلى يوم..

ووجدت أن كل الفرق الرياضية لم تستعد استعدادًا كافيًا، كل شىء تركوه لآخر لحظة، ومادامت المسألة حفلاً عائليًا فأى كلام يكفى..

وفرقة التمثيل كانت تتلكأ فى التجارب، ولم يحفظ دوره إلا اثنان من الممثلين: صاحب الدور الرئيسى وواحد ثان، وكان فى الرواية دوران نسائيان المفروض أن تمثل واحدًا منهما ممثلة كبيرة، وهذه لم يفاتحها أحد..

أما وجبة الغداء فقال الطالب المسئول عنها إنه تكلم مع صاحب المطعم الفلانى بالتليفون وإن هذه مسألة بسيطة يمكن تدبيرها قبل الحفل بيوم..

– يا بنى كيف يمكن لأى مطعم فى مصر أن يعد ٥٠٠ وجبة من الكباب وما يتصل به فى يوم واحد؟..

– لا يكن عندك هم يا بيه.. والمطاعم كثيرة.. دع أنت المسألة ولا عليك.. وكله تمام يا بيه..

وحتى الحرس الجامعى لم يخطروه، وكان لابد من إخطاره، ولم يتصل أحد بوزارة الداخلية ومحافظة الجيزة، ولم يكن من الممكن فى تلك الأيام تنظيم أى حفل عام فى الجامعة دون موافقة المحافظة والوزارة، والمفروض أنها موافقة شكلية، فإذا بها ليست شكلية أبدًا، لأن المحافظة والوزارة لابد أن يكون لديهما وقت كاف لاتخاذ إجراءات أمن لابد منها..

وقال أحد أعضاء لجنة الطلاب: هذه مسائل تتم كلها فى يوم..

إن ابن عمى وكيل محافظة الجيزة وقد أبلغته.. وكله تمام يا أفندم..

وقلت: لا والله ما كله بتمام ولا نصف تمام..

وخلال أسبوع كامل لم أسترح لا بالليل ولا بالنهار: من مراقبة تمرينات الرياضة إلى تنظيف الملعب وإعداده إلى محافظة الجيزة إلى مسرح الأزبكية حيث كنا سنقيم الحفل التمثيلى..

وكانت مشكلة وجبة الغداء مستعصية على الحل، فأى مطعم مهما كان حجمه لم يكن ليستطيع فى تلك الأيام إعداد هذا العدد الكبير من الوجبات وإرسالها فى يوم الحفل إلى الجامعة فى الجيزة..

وأخيرًا تمكنا من إعداد الحفل، كل شىء تم بسرعة وبغير إتقان، واضطررنا إلى إلغاء الكثير من عناصر البرنامج..

وكادت تحدث مهزلة مبكية من وراء «كله تمام يا أفندم».. ومن يومها أصبحت أفهم عندما أسمع هذه الجملة أن هناك كارثة فى الطريق..

□□□

وخلال تجاربى على مدى السنوات الطويلة رأيت مآسى حقيقية تقع من وراء هذه الجملة التى يقولها المرءوسون عادة لكى يطمئنوا رئيسهم ويخادعوه..

وعندما أصيبت والدتى رحمها الله تعالى بنوبة قلبية وحملناها إلى المستشفى وجدنا كل أنابيب الأوكسجين فارغة، والأنابيب الملأى موجودة، ولكن الأنابيب التى كانت موجودة فى الغرفة هى الفارغة، وإلى أن يتم النقل والتركيب يكون قضاء الله قد سبق إلى المريض..

وحملنا مريضتنا إلى مستشفى آخر، وكان قضاء الله فى الطريق.

وساعتها فقط، ولا أدرى كم مريضًا مات قبل ذلك، يومها فقط بدلوا الأنابيب الفارغة بالأنابيب الملأى وأصبح كل شىء تمام يا أفندم..

وأشد ما أثار غيظى يومها، ونحن نجرى ملهوفين – لأن بين أيدينا مريضة عزيزة لا تستطيع التنفس – أن كبيرة الممرضات قالت:

يا بيه هذه مسألة بتاعة ربنا.. ربنا عاوز كده.. دى أعمار، وهل يستطيع أحد أن يتدخل فى الأعمار؟..

□□□

وبينما كنت أطالع كتاب (البحث عن الذات) للرئيس الشهيد أنورالسادات، عليه ألف رحمة من الله، كنت أرى بعينى مئات الكوارث التىحلت بهذا البلد وبجمال عبد الناصر نفسه، من وراء كارثة كله تمام يا أفندم..

كلهم كانوا يقولون له: كله تمام يا أفندم..

وكل صغير كان يقول للذى فوقه: كله تمام يا أفندم. لأنهم يخافونه، ويخافون غضبه كانوا يقولون له: كله تمام يا أفندم..

وحتى أنور السادات، وكان اليد اليمنى لعبد الناصر قالوا له قبيل كارثة هزيمة ١٩٦٧م: كله تمام يا أفندم..

وجمال عبد الناصر – كما قال السادات – مات بالفعل يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م ولكنه دفن يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠م..

والذين قتلوه لم يكونوا خصومه الإسرائيليين بل كانوا مساعديه من المصريين..

لقد غيروا الخطة التى كان قد صدق عليها دون أن يخطروه، وعندما سأل عبد الناصر عن موقف الطيران قال له قائد الطيران صدقى محمود: يا أفندم إحنا عاملين حسابنا، ولن تزيد الخسارة على عشرين فى المائة.

يعنى: كل شىء تمام يا أفندم..

وعندما وقعت الواقعة كانت خسارة الطيران مائة فى المائة، وضاعت الحرب..

وهذه ليست أسرارًا ولكنها فى كتاب مطبوع بكل لغات الدنيا.

ويوم المعركة، ولأنهم كانوا قد قالوا لأنور السادات إن (كله تمام يأفندم) كان مطمئنًا كل الاطمئنان على النصر قال: (فحلقت ذقنى وارتديت ملابسى على مهل، وتوجهت بسيارتى إلى القيادة، كنت قد

حضرت إعداد الخطة بالكامل، وكانت ثقتى بالنصر أكيدة، فعدتنا أكثر من كافية، والخطة محكمة للغاية)..

ثم تبين الحقيقة الأليمة، لم يكن أى شيء تمام يا أفندم:

(سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأكمله وهو على الأرض)..

وهذه الكارثة هي التى علمت السادات كيف يكسب النصر فى حرب أكتوبر..

لم يدع نفسه ليقع فريسة (كله تمام يا أفندم)..

اختار الرجال الأكفاء الذين لا يقولون كلمة إلا بحساب، وعندما يقولون إن (كله تمام يا أفندم) فمعنى ذلك أن كله تمام يا أفندم، ومأساة صدقى محمود لم تتكرر لأن الذى تولى سلاح الطيران كان القائد محمد حسنى مبارك، وكان السادات وراء كل دقيقة وكبيرة بل كان فى كل صغيرة وكبيرة. كان يعنى أن لفظ (كله) ينبغى أن يكون معناه (كله) من صامولة عجلة السيارة ووجبة الطعام إلى الطائرة المعدة تمام الإعداد..

ومن المعروف كذلك أن هذه هى عدة النصر التى اعتمد عليها نابليون فى معظم معاركه، عندما قرر أن يضرب النمسا وحلفاءها ضربة قاصمة فى معركة أوسترليتز، ظل أسبوعًا كاملاً وهو فى أوستند فى بلجيكا بعد أن أعلن الحصار القارى على إنجلترا، ظل أسبوعًا يملى تفاصيل معركة أوسترليتز..

كان السكرتيرون يتبدلون وهو يملى دون تعب كل تفصيلة من تفاصيل التجهيز والإعداد والتموين والاستراتيجية والتكتيك، وبعد أن أملى الخطة فى نحو ٦٠٠ صفحة جلس يراجعها كلمة كلمة، ثم اختار القادة واحدًا واحدًا وأعطى كل قائد نسخة من الخطة الكاملة مع نسخة من الجزء الخاص به..

ثم ذهب إلى باريس حيث أشرف على الإعداد والتدريب بنفسه، وسافر إلى ميتز حيث كانت المدافع تصب وتركب، ورآها بنفسه قطعة قطعة، ثم ذهب إلى شارلروا لكى يرى البنادق خارجة من المصانع، ثم ذهب إلى نانسى واستراسبورج لكى يتأكد من وفرة التموين ثم أسرع إلى أوجزبورج لكى يشهد بعينيه كل شىء فى طريقه إلى مكان المعركة، وفى قرية قرب فريدريكس هافن استعرض الخيول واجتمع بقيادة الفرسان..

وكان قواده يقولون له: (مون جنرال لا داعى لهذا الاجهاد، نحن ساهرون، وكل شيء على ما يرام) فكان يجيب: إذا انتصرنا فستكونون كلكم منتصرين، إما إذا انهزمنا فإن نابليون وحده هو الذى ستقع عليه كل الهزيمة..

ولم يكن ذلك عن قلة ثقته بقواده، بل لأنه كان لا يؤمن بأن كله تمام يا أفندم حتى يرى بعينيه..

وعندما تحرج في ووترلو وعلم أن بلوخر قد ثبت مدافعه على التلال المشرفة على الميدان عض على أنامله وقال: يا لى من غبى: لمرة واحدة نسيت جزئية واحدة، وهذه النتيجة، وظل دقائق ينظر إلى تلك التلال، وقالوا له: لم يضع كل شيء بعد، ويمكننا أن نفعل كذا وكذا، قال: إن القائد الصغير هو الذى يلجأ إلى التصرف فى آخر لحظة، أما أنا فكل شيء ينبغى أن يكون واضحًا وثابتًا هنا.. (وأشار إلى رأسه) وهنا (وأشار إلى عينيه) قبل المعركة بأيام.

وعندما نقرأ فى بيان لوزير المالية أن لدينا بضائع مكدسة غير صالحة للبيع تقدر بأربعة بلايين من الجنيهات نعرف أن هذه الكارثة ناتجة من (كله تمام يا أفندم)..

العامل الصغير يقول لرئيس الورشة هذه العبارة القاتلة ليطمئنه، ورئيس الورشة يقولها لرئيس الورش، ورئيس الورش يقولها لمدير الإنتاج، ومدير الإنتاج يقولها للمدير العام ومنه إلى رئيس مجلس

الإدارة، ولو كانت قيمة الإنتاج البائر مليونًا أو مليونين لقلنا إنها تجارب نتعلم منها ونستطيع إصلاحها، ولكن عندما يصل البائر إلى أربعة بلايين لا يكون الأمر أمر تجارب وتعلم، ولا نقصا فى المواد، إنما يصبح الموضوع نقصًا أخلاقيًا، يصبح موضوع غش آثم مقصود.

لأن كل واحد من أولئك السادة قال تلك العبارة باستخفاف وقلة ضمير لأنه لن يخسر شيئًا ولن يخصم منه أجر يوم، ولكن الخسارة بكاملها ستخصم من إيرادات الشعب المصرى كله..

لقد حومت حول حقيقة هذه الكارثة جريدة الأهرام فى مقالها المؤرخ ٣٠ أكتوبر ١٩٨١م فى مقال كتبه الأستاذ إبراهيم نافع تحت عنوان (وجاءت لحظة مواجهة الحقيقة) قال فيه: (بمعنى آخر: هناك إنتاج زائد، ولكنه إنتاج يتحول إلى إنتاج راكد نضطر معه إلى الاستيراد، وهناك بيروقراطية حكومية تتسلط على الشركات.. وليست هناك برامج تفصيلية للخطة فى كل قطاع، وبالتالى ليس هناك برنامج عمل محدد واضح المعالم حتى إن أهداف التصدير لا تتحقق، بل وبدأنا فى نسيانه كحقيقة اقتصادية ثابتة وفيها الإنقاذ الأول.. وذلك هو ما نعنيه بأن السطح أو الغطاء سليم، ولكن العمق يحتاج إلى نفاذ إليه..

والكلام هنا مهذب..

ولكن الكلام المهذب لا ينفع عندما تصل الخسارة فى الإنتاج إلى ٤٠٠٠ مليون جنيه من المصنوعات البائرة التى لا تباع..

لا ينفع هنا إلا الكلام الصريح الصادق حقًا، وهو أن أحدًا من المتسببين فى هذه الخسارة الفادحة لم يراجع ضميره، كلهم كذبوا بعضهم على بعض، كلهم كذبوا علينا. كلهم قالوا: كله تمام يا أفندم، ولم يكن كله تمام يا أفندم، والمسألة فى صميمها وكما قلت أخلاقية..

فإن العامل الواقف أمام الآلة.. لم يراع ضميره، وهو يستحق عقابًا على ذلك..

ورئيس الورشة المكلف بمراجعة إنتاج العمال لم يراع ضميره، وخان نعمة العيش التى يأكلها من مالنا، ولم يقم بواجبه وأقر إنتاجًا فاسدًا لاينفع، وكذلك الذى فوقه والذى فوقه..

وهنا أيها السادة لابد من العقاب. فمادام هناك خطأ فهناك مسئول، ومادام هناك مسئول يتقاضى أجرًا عن العمل فلابد أن تكون هناك عقوبة عندما يتقاضى هذا المسئول أجرًا على عمل لم يحسنه..

والمسألة ليست إصلاح نظام بل إصلاح أخلاق..

وكما أن هناك شيئًا اسمه الثواب فهناك شيء اسمه العقاب، والله سبحانه وتعالى وهو أعدل العادلين - يربط الثواب بالعمل الصالح، ويربط العقاب بالعمل غير الصالح. ولو أننا طبقنا عدل الله سبحانه وتعالى لما تزايد تل الإنتاج البائر، حتى صار جبلاً، وإذا سكتنا عليه فسيصير سلسلة جبال، وسيكون الانهيار أكثر من خطير..

إن العالم كله ينتظر الإنتاج الجيد ويشتريه.. والسوق العالمية تستهلك كل شيء لأن الدنيا كلها تعلمت درس الإنتاج الجيد إلا نحن، لازلنا نقول (كله تمام يا أفندم) وننام..

ونحن فى مصر نشترى بضائع كل بلاد الدنيا: من كوريا وتايوان وهونج كونج والهند فضلاً عما نشتريه من الدول الصناعية الكبرى، ومما يؤلم النفس أن مصر كانت فى قمة البلاد المنتجة للأثاث والمصدرة له قبل ثلاثين سنة تستورد اليوم الأثاث، وكانت الأحذية المصرية تباع فى طول العالم العربى وعرضه فأصبحنا نستورد أحذية، وأقمشتنا التى كان العالم يتهافت عليها أصبحت تشترى بحذر، حتى المشترى المصرى فى داخل مصر أصبح يشترى بالة القماش فإذا فتحها وجد التمزيق والقطوع والخيوط الخارجة عن النسيج، واضطر إلى أن يلقى جانبًا أمتارا بعد أمتار، لأن الناس لن يشتروها، فى حين أن المصنع المصرى - وهو فى

الغالب قطاع عام - يتحكم فى المشترى ويقول له دون خجل: إما أن تأخذ البالات كما هى أو دعها، هناك ألف غيرك..

وهذا الكلام من صاحب المصنع أو المسئول عن البيع فيه صفاقة وقلة أدب وخيانة للوطن، فهو لا يستحى من أن إنتاجه فاسد، وهو لايخجل من أنه منتج سيىء ورجل عاجز ورئيس لا يستحق منصبه، ولا يكفيه ذلك حتى يصل إلى الوقاحة وقلة الأدب..

وهذا الأسلوب الوقح تستطيع أن تلمسه بنفسك كل يوم، فمن شهر مثلاً ذهبت أشترى حقيبة سفر من محل من محلات القطاع العام، وأهم شيء فى الحقائب هى الأقفال والمفصلات، ومضيت أجرب الأقفال، نحو ١٠ حقائب أقفالها لا تقفل، أو واحد يقفل والثانى لا يقفل..

وكل هذه الحقائب إذا أقفلتها لا تنطبق، لأن المفصلات فى غير مواضعها، وأخيرًا قال لى البائع: يا أفندم أهلكتنا.. عشرون حقيبة تجربها دون أن تعجبك إحداها!..

- يا سيدى إننى عميل أشترى وأدفع الثمن، وأريد حقيبة متقنة الصنع ينطبق جزآها ويقفل قفلها وكيف تريدنى أن أشترى حقيبة تنفتح منى أثناء السفر..

- يا حضرة.. هذا هو الذى عندنا.. إما أن تأخذه أو لا توجع قلبنا،لو كان كل العملاء مثلك ما بعنا حقيبة واحدة..

ولو كنا فى بلد آخر لاستحق هذا الرجل عقوبة..

ولكن عنده حق.. فهو لا يخشى عقوبة ولهذا فهو وقح قليل الأدب..

ثم تطلع على تقرير مجلس الإدارة لهذه الشركة فترى أن ملخصه عبارة (كله تمام يا أفندم) والمحل يكسب، ونسبة الربح كذا، والعاملون- رئيس مجلس الإدارة فى مقدمتهم- يستحقون جوائز تشجيعية..

ويعطونهم مكافآت تشجيعية..

ويتعالى جبل الإنتاج البائر الذى لا يباع..

ويدفع الشعب من ماله ثمن هذا الإنتاج الذى لا يباع..

(وبرضه يقولون): كله تمام يا أفندم..

بالنسبة للدنيا كلها انتهى عصر التواكل والتكاسل والهزل فى علاج الأمور، والأمم التى نسميها الأمم القوية أو الغنية أو المتقدمة هى الدول التى لا يقول أهلها (كله تمام يا أفندم) إلا إذا كان كله تمام يا أفندم، والدول المتأخرة الفقيرة هى التى يقول أهلها (كله تمام يا أفندم) فى حين أن (كله مش تمام يا أفندم)..

والمسألة هنا ينبغى أن تبدأ من أعلى، لأن المفروض أن الذى هو أعلى يعلم ويوجه ويثيب ويعاقب من دونه، وهكذا حتى نصل إلى القاعدة..

إذا كنت وزيرًا فلا تصدق عندما يقولون لك (كله تمام يا أفندم) حتى ترى بنفسك أن (كله تمام) فعلاً..

لقد زرت أكثر من مرة قسم تعبئة الحقن فى شركة سيبا للأدوية فى بازل بسويسرا، هناك لا يختبرون عينات من الحقن المعبأة، بل يفحصونها واحدة واحدة..

هناك عاملات متخصصات جالسات إلى منضدة طويلة يمر أمامها شريط جلدى عليه الحقن، وخلفها أضواء مختلفة تكشف عن أى خلل فى محتوى الحقنة أو إحكام قفلها، والعاملات جالسات فى غاية الانتباه..

والشريط يسير أمامهن فى بطء وبصرهن مثبت فيما يمر أمامهن.. كل حقنة يشك فى أمرها ترفع باليد وتوضع على المنضدة..

وهناك مراجعات أخريات. رئيسات يراقبن نفس الحقن مرة أخرى، والويل للعاملة التى تركت حقنة معيبة تمر، والحقن المعيبة تفحص لمعرفة المتسبب، ولا يمكن التساهل مع المسئول أبدًا. لابد من العقوبة،

وفى الولايات المتحدة رأيت نفس الدقة فى صناعة السيارات فى ديترويت..

وفى أوساكا باليابان رأيت كيف يراقبون سلامة الإنتاج، هل يدهشك بعد هذا أن تعلم أن فائض الإنتاج الجيد المباع من صناعة اليابان وصل إلى ١٢٠٠٠ مليون دولار؟..

إن أوروبا وأمريكا تشكوان من جودة إنتاج اليابان، واليابان رفقا بهم تشترى بضائع لا تحتاج إليها، لكى يعتدل الميزان التجارى بينهم وبين اليابان..

□□□

ليس أسهل من النجاح لمن يعرف طريقه..

وطريق النجاح هو العمل الجاد المتقن والضمير الحى..

ولا يمكن فى أيامنا هذه أن تنتج إنتاجًا جيدًا ويبور.. لأن سكان الدنيا كثيرون جدًا، وكلهم يشترون، ونحن أنفسنا نذهب إلى كوريا لنشترى البضائع..

وفى هذا العام اشترت شركة ايبريا الأسبانية للطيران طائرات من صنع أندونيسيا، لأنها وجدت أنها جيدة صالحة..

ونحن لدينا بضائع قيمتها ٤٠٠٠ مليون جنيه. وهى فى زيادة – لانستطيع بيعها لرداءتها، حاجة تكسف..

والذى يكسف أكثر هو أن هذه المنتجات من بضائع لا تحتاج إلى دقة عظيمة: أقمشة، جوارب، ملابس داخلية، حقائب سفر، قطع موبيليا عادية جدًا، وما إلى ذلك.. تريد أن تضحك وتبكى فى آن معا؟..

ادخل إلى قسم الأثاث فى أى محل يبيع إنتاج القطاع العام واطلب كرسيًا عاديًا من النوع الذى يستطيع صنعه نجار السواقى أراهنك: لن تجد كرسيًا لا يعرج.. القوائم الأربعة لا تتساوى أبدًا.. حاجة تكسف..

والذى يكسف أكثر أن التقدير السنوى للمصنع الذى ينتج هذه الكراسى يقول: كله تمام يا أفندم!..

(٤)

مجاهدون: قضيتهم الفلوس* !

الصحافة مهنة شرف، والقلم أمانة وكل كاتب جدير بهذا الوصف ينبغى أن تكون له قضية إنسانية عادلة، ومادامت له قضية إنسانية عادلة، فهو مجاهد بالقلم.. ولكن عالمنا العربى يشهد منذ حين ظاهرة الصحفيين الذين جعلوا كسب الفلوس قضيتهم، فكل ما يؤدى إلى الفلوس يكتب وينشر، وهؤلاء الناس ليسوا صحفيين، إنهم تجار باعوا كل شيء حتى الوطن وشرف المهنة، بل صاروا يتقاضون الفلوس على مالا ينشرون لا على ما ينشرون. لأنهم يبحثون عن الفضائح، ويتقاضون المال على عدم نشرها، ولكى يحرروا العالم ذهبوا ليحرروه فى لندن وباريس بل من قبرص.

باستثناء الحاقدين على الدنيا والناس، الذين طمس الله على قلوبهم فهم صم عمي لا يسمعون ولا يبصرون، ويحسبون أن القتل وسفك الدماء جهاد، لابد أن تكون لكل مجاهد قضية يجاهد فى سبيلها. سواء اختلفنا معه أم اتفقنا، فإنه يجاهد مادامت له قضية نابعة من إيمانه بما يجاهد فى سبيله. مادام جهاده لا ينبع من مجرد البغض والحقد، ومادام يعتقد أن قضية تتوخى الخير للناس أو لطائفة من الناس فهو مجاهد وجهاده مشروع.

والقضايا والجهاد فى سبيلها على هذا الأساس هما من أكبر أسباب تقدم الإنسانية. مهما كان رأيك فى قضية المجاهد فإنك لابد أن تحترمه مادام فى قضيته جانب من الخير ولو لقومه فقط. لأنه مادام فيه خير ففيه فضيلة وفيه كرامة، وفيه أغلى ما فى الحياة وهى حرية الإنسان.

رغم إنكارنا لحركة الصليبيات التى عانينا منها نحو ثلاثة قرون فلابد أن نقرر أنه وسط عشرات الألوف من المتعصبين والطامعين

---

* نشرت هذه المقالة فى ٣ يناير ١٩٨٢م .

والمضللين والمغامرين الذين قاموا بهذه الحروب، فقد كانت فئة قليلة جدًا منهم لها قضية: قيل لهم إن المسلمين يحولون بين الناس وزيارة قبر المسيح، قيل لهم إن المسلمين أعداء المسيح. هذه القلة كانت مجاهدة رغم أنها كانت مخدوعة، وهي على قلتها هي التي تجعل للصليبيات معنى في التاريخ.

وعندما قام عماد الدين زنكي بدعوة المسلمين للتجمع لطرد الغزاة المعتدين كانت له قضية ولهذا فهو مجاهد، وعندما استولى على الرها سنة ١١٤٤م. وفتح أبوابها للإسلام وأذن للنصارى فيها بأن يتعبدوا ما شاءوا أصبح اسمه حروفًا من نور في تاريخ المسيحيين أنفسهم.

ثم جاء ابنه نور الدين محمود وارتد الجهاد إلى نبع الجهاد الصافي وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستيقظت أمة الإسلام على نداء الجهاد وقضية الإسلام المظلوم. وثلاثون عامًا من الجهاد في ميادين الموصل والشام ومصر جعلت نور الدين محمودًا نورًا لكل دين، جعلته نورًا للإسلام ونورًا لغير أهل الإسلام. وعمورى أو أماليك المستعمر الذى قام في القدس على بحر من دماء سبعين ألف مسلم استشهدوا يوم دخل سلفه بلدوين القدس وأعلن نفسه ملكًا عمورى هذا كان إذا ذكر أمامه اسم نور الدين تمشى الخوف في أوصاله. لأنه كان يحس بالخشوع أمام المجاهد.

وعندما انتقلت راية الجهاد إلى صلاح الدين عرفت أوروبا كلها أنها كانت على ضلال. لأنها وجدت نفسها أمام مجاهد حق له قضية حق. والملوك الثلاثة الذين أقبلوا يقودون الحرب الصليبية الثالثة لعقاب صلاح الدين أحنوا هاماتهم للرجل الذى اقبلوا ليعاقبوه، وواحد منهم وهو ريتشارد الذى لقبوه بقلب الأسد اقبل من إنجلترا ليعاقب هذا المتمرد الذى قيل له إنه اغتصب القدس من أهل النصرانية، وعندما أصابته الحمى وبات ليله يتقلب في غمراتها أتته كأس من صلاح الدين فيها شراب قيل له إنه ترياق.

وشرب الترياق وأفاق، وشفى به، وعندما علم أن هذه الكأس أتته من هذا الرجل الذى أتى ليعاقبه أحس أنه رجل أقوى منه وأبسل. وقال لقد فعل ما لم أكن أنا ولا غيرى يفعله قط. هذا رجل لا يمكن أن يختلس أو يعتدى. وأزمع العودة إلى بلاده. وعندما قالوا له: تمضى وتترك القدس فى أيدى المسلمين. قال. أما والمسلمون فيهم مثل صلاح الدين فالقدس وقبر المسيح فى يده فى أمان. لقد هزمه صلاح الدين بكأس دواء. يومها عرف أن الإسلام قضية عادلة. ومادام قضية عادلة فأصحابها مجاهدون.

ولست أضرب هذا المثل جزافًا. إنما اخترته لأن له معناه هنا.

□□□

إن القضايا العادلة هى التى تخلق المجاهدين والقضايا الباطلة هى التى توجد القتلة والسفاحين والمضللين والأفاقين وطلاب الرزق الحرام.

وكل جهد لا يقصد إلى خير الناس لا يمكن أن يكون جهادًا. ومادامت لا توجد قضية فلا جهاد.

الاستعمار كله لم يكن له قضية. كانت له مطامع، ولهذا وعلى الرغم مما أبداه بعض غلاة المستعمرين من ذكاء، فإن واحدًا منهم لم يكن مجاهدا. كلهم كانوا لصوصًا: السير ايفلين بيرنج (السير كرومر) والماريشال ليوتى ومونجو بارك وسيسيل رودس كانوا لصوصًا كبارًا. ليوتى عندما قال مرة: لا يمكن أن نحكم الناس رغم تقاليدهم. لابد أن نحكمهم من خلال تقاليدهم.

صفق له أعضاء المجمع الفرنسى إلا أناتول فرانس فقد قال له: ولماذا نحكم الناس أصلا؟ فقال: لكى نحضرهم، لكى ندخل إليهم الحضارة الفرنسية؟ قال: وهل هذا عمل ماريشال وجنرالات وجنود؟ ولم يصفق أحد لأناتول فرانس، لأن الأكاديمى فرانسيز عندما استقبلت صاحب

السيف والمدفع لم تعد أكاديمية. القضية انتقلت إلى رجال التحرير المغربى، أصبحوا هم الذين يعملون الفرنسيين. كانوا مجاهدين ولم قضية.

أما الفاتحون المسلمون فكانوا مجاهدين لأنهم كانت لهم قضية. قضيتهم هى الإسلام ورسالة النور. عقبة بن نافع الذى اخترق المغرب بحد السيف كان مجاهدًا وقضيته الإسلام. لهذا كان موته خلودًا لأنه استشهاد فى سبيل قضية. ومن حواصل الطير وبطون السباع سيحشره الله مع الصديقين والأبرار يوم القيامة. وكان ليونى رجلاً حقيرًا عندما شبه نفسه بعقبة بن نافع ولهذا لا يموت المجاهدون. إنما يخلدون يصبحون شهداء والشاهد والشهيد لا يكون إلا حيا وإن مات جسده.

مارتن لوثر كان مجاهدًا، لأنه كانت له قضية. قضيته كانت تحرير الدين من القساوة الذين حولوه إلى تجارة، لقد ترجم الانجيل من اللاتينية الذى كان الأحبار يتسترون به وينهبون أموال الناس. كان رجلاً له قضية وكان صادقًا، ولهذا كتب له الخلود. لا يذكر أحد اسم البابا الذى كان يتربع على عرش الكنيسة أيام مارتن لوثر، لأنه كان رجل دين بدون دين. كان محصل أموال بلا قضية.

وكارل ماركس لم يكن مجاهدًا لأن قضيته كانت الحقد. كل كلامه بعيد عن الإنسانية، ولا توجد فى حياته ولا فى سطورة لمحة إنسانية. كان يريد إحراق الدنيا فسلط العمال على أصحاب الأموال. فى نفس الوقت لم يستح من الاعتداء على خادمته وعندما حملت منه طردها. ألقى بها فى الطريق وعاد إلى مكتبه ليكمل المانيفستو. كلماته تقطر السم والدم والدمار. كان هذا الرجل الذى زعم للناس أنه ملحد صهيونيًا متعصبًا وله كتاب يسمى الدولة الصهيونية كان منافقًا وكاذبًا.

ولا يمكن أن يكون المجاهد منافقًا أو كاذبًا. لهذا لم يؤمن بلد بآراء ماركس إلا ركب أهله الذل والشقاء، وأكبر دولة استعمارية عرفها

التاريخ هى دولة الشيوعيين الروس. إنهم استعماريون ولهذا فهم ليسوا مجاهدين وليست لهم قضية.

والكتابة الصادقة جهاد لأن لها دائمًا قضية والكاتب الجدير بحمل أمانة القلم مجاهد لأن له قضية، قضية الإنسانية والحرية وكرامة البشر. فى تاريخنا الأدبى قليلون جدًا كانت لهم قضايا تجعل لهم مكانًا بين المجاهدين. الجاحظ نفسه لم يكن مجاهدًا لأنه لم تكن له قضية. لقد لعن ظلم الأمويين الذى سماهم النابتة، وأيد ظلم العباسيين الذين سماهم الأئمة. إنه رجل بليغ، ولكنه ليس صاحب رسالة.. أنت تعجب به، ولكنك لا تجد خيطًا يربطك به كإنسان.

والمتنبى كان شاعرًا فحلاً، ولكنه لم يكن مجاهدًا لأنه جعل قضيته الفلوس وكل ما عدًا ذلك غطاء. والرجل الذى يمدح كافورا الإخشيدى للفلوس ويذمه للفلوس لا يمكن أن يكون صاحب قضية. لهذا لم يتعلم العرب من المتنبى شيئًا وإن كانوا قد حفظوا شعره. ولا كان أبو حيان التوحيدى مجاهدًا لأن قضيته كانت الفلوس، وبلاغته كانت عبقرية فى التسول. الوحيد من أهل الفكر الذى كانت له قضية فى تلك العصور كان أبا العلاء المعرى قضيته كانت كرامة الإنسان. لقد وضعه الله فى محبس فوضع هو نفسه فى محبس آخر ليكون حرًا، ورهين المحبسين كان المفكر الحر الوحيد فى تاريخ فكرى طويل حافل بالمتسولين الذين كانت قضيتهم الفلوس.

لهذا نحن نحب العقاد ونحنى له هامتنا لأن قضيته دائمًا كانت حرية القلم وكرامة الإنسان. فى سبيل قضيته تلك ضحى بكل شىء، والرجل الذى هز عرش الجبار لم يكن له بيت ولا كانت له زوجة ولا كان له مال. حتى طه حسين لا يسمو إلى شأو العقاد طه حسين كانت قضيته الأولى الوزارة وجهاده السلطان.

ذكرت ذلك كله وأنا أتأمل حال الفكر العربى فى أيامنا هذه. إننى أكتب هذه السطور خارج مصر وحولى صحف ومجلات غربية يكتب

فيها كتاب يسمون أنفسهم مجاهدين. ولكنهم متسولون وقضيتهم الفلوس. لكنهم يكتبون لحساب أصحاب الفلوس ولا أحد منهم يكتب سطرًا في سبيل إنسان مسكين مظلوم مفلس. لا أحد من هؤلاء يجاهد في اليمين أو الصومال، لأن اليمن لا مال عنده والصومال لا خيل عنده يهديها ولا مال، كل ما عنده المنطق والمنطق لا يسعد طالب الفلوس.

كل هؤلاء يهاجمون مصر لأن مصر منذ أيام عبد الناصر لم تعد تدفع.. إنهم يكتبون في مجلات هي في ذاتها حيوانات عجيبة كتلك التي يحدثنا عنها الدكتور جوهر في أحاديثه عن البحار.

ونحن في عصر من العروبة عجيب، أصبحت الصحف العربية تصدر فيه في باريس ولندن لكي تصدر إلى البلاد العربية. الصحف نصفها إعلانات ونصفها الآخر تسول، وأنت تقرأ ما فيها فتعجب من مجاهدين كل قضيتهم الفلوس. مادامت هناك فلوس فهناك قضية، فإذا لم تكن هناك فلوس في قضية وبالتالي لا جهاد.

أصحاب هذه الصحف كلهم لبنانيون. بعد أن خربوا وكنهم لبنان، انتقلوا إلى لندن وباريس بل قبرص وأصبحت وظيفتهم تخريب العالم العربي كله لحساب نفس الذين خربوا لبنان. الأقلام هي هي واليد التي أحرقها السوريون لأنها جرؤت مرة على أن تغضبهم مازالت تكتب في مجلة الفلوس.. نفس الأقلام التي تكتب بمداد الدماء هي التي ما تزال تكتب هناك.

وفي باريس تصدر مجلة عربية أخرى تسمى المستقبل. نفس الأقلام التي تكتب فيها هي أقلام الحقد الموجه لكل شيء فيه أمل في عالم العرب. من البديهي أن تكون مصر هنا هي الهدف، والذين يبكون مصر هناك هم الذين لم يعودوا يبكون على لبنان. لأن لبنان لم يعد يدفع. هنا يبكي نبيل خوري على مصير مصر بعد السادات ولا ندري ماذا يبكيه.

هنا يكتب من يسمى بإبراهيم سلامة.. يبدى خوفه من أن تضيع مصر مرتين.. ولا ندرى متى ضاعت مصر المرة الأولى حتى تضيع الثانية. بعد صفحتين نقرأ أن معلومات الجامعة العربية تقول إن مصر مبارك تنوى حضور قمة فاس. وقد مضت قمة فاس مضت ولم تحضر مصر فأى أخبار هذه؟ وماذا تكون تلك الجامعة العربية التى وصلت منها تلك الأخبار. بعد بضع صفحات تقرأ حديثًا مزعومًا على لسان إبراهيم شكرى يزعمون فيه أنه قال إن كامب ديفيد شق للصف العربى وبديله يعيد مصر إلى العرب.

نفس المجلة تقول بعد ذلك إن دمشق تحمل إلى فاس ملف القوات المتعددة الأطراف. خلاصة المقال أن هذه الجريدة العجيبة لا يعجبها اشتراك دول غرب أوروبا فى قوة حفظ السلام. معنى ذلك أنها - لا إسرائيل - لا تريد لسيناء أن تستقل. أى عربى فى الدنيا يمكن أن يضيره تحرر سيناء. وأهل الرأى السديد عند هؤلاء السادة هو أن تقوم مصر مثلاً بدعوة إسرائيل لاحتلال سيناء مرة أخرى والاستيلاء على قناة السويس لكى نقوم نحن العرب بتحريرها مبتدئين من فاس؟.

بعد قليل نقرأ أن ليبيا تربح المعركة الدبلوماسية لانسحابها من تشاد ولا نفهم أصلاً ماذا يريد أن يقول الكاتب. هل فهم أحد فى الدنيا لماذا كانت ليبيا فى تشاد، وهل ليبيا موجودة فى ليبيا لتكون موجودة فى تشاد؟.

ومجلة عجيبة أخرى تصدر فى قبرص للدفاع عن العرب. إنها لبنانية مهاجرة، وسبب الهجرة أن أصحابها كانوا فى بيروت يستولون على حصة ضخمة من الإعلانات العالمية، فإذا توقفت المجلة عن الصدور ألغى عقد الإعلانات، ولهذا فلابد أن يستمر صدور المجلة، ومادام صدورها فى بيروت قد أصبح عسيرًا ومحفوفًا بالأخطار، فلتهاجر المجلة كلها إلى قبرص، ولتصدر من هناك حتى يستمر سريان العقد

ويستمر سيل الإعلانات، وهذه الإعلانات لا تنهال على تلك الصحية لأنها تبيع مئات الألوف، فإنها في الواقع لا تبيع إلا ألفين أو بثلاثة آلاف عدد.

إنما هذه الإعلانات تأتي لتحل محل كلام، يقول أصحاب المجلة إنهم يريدون نشره، ولكنهم يتوقفون عن النشر إذا دفع لهم ثمن مناسب، وهذا الكلام هو فى الحقيقة أسرار فضائح ورشى تدفع لموظفين، وهذه الرشى تدفع لموظفين أو شخصيات من شركات عالمية لترسو عليها الصفقات، وقوة هذه المجلة أن أصحابها يعرفون هذه الأسرار وهم يهددون بها، فترى الشركة التى تدفع الرشوة أن الأفضل لها ولعملائها أو سماسرتها أن تشترى السكوت بنشر إعلانات تدفع فيها مبالغ طائلة.

وهكذا نجد المجلة التى لا تبيع إلا ألفين أو ثلاثة حافلة بالإعلانات العالمية، لأن المجلة لا تعيش على ما تنشر بل على ما لا تنشر. لا تكسب بما تقول بل بما لا تقول، وهذا نوع من الصحافة. عجيب، صحافة التهديد بالنشر أو البلاك - نيلنج أى خطابات. التهديد التى ترسل للناس لكى يدفعوا وإلا.. فهى خطابات سوداء ومن ثم فإن هذه الصحافة سوداء.

وقد راجت سوق هذه الصحافة السوداء فى بيروت رواجًا هائلاً وكسب أصحاب الصحف فيها أموالاً لا تصدق، لأن بعض أصحابنا أصحاب الفلوس يحبون - إذا هم نزلوا باريس أن يقضوا لياليهم فى نوادى القمار وبيوت الرذيلة، وإذا ذهبوا إلى لندن كان نادى البلاى بوى مقرهم المختار، وأصحاب الصحف لهم بالمرصاد، فهم ينتظرونهم فى النوادى، ولهم جواسيسهم ومصوروهم.

ولا يكاد الإنسان الساذج المثقل بالأموال يصحو من ليالى الشيطان حتى يزوره مندوب الصحيفة. وربما مندوبتها وهى فى الغالب صفراء الشعر وردية الخدود، وأمام الإغراء يذل صاحبنا، وهنا تفتح الشقراء حقيبتها وتخرج صورًا وتبيعها لأخينا بملايين؛ لأن نشرها يؤذيه، وهو

فى الغالب صاحب أعمال أو سيد عظيم تمر من تحت يديه الأموال، ومليون فوق أو ثلاثة لا تفرق، وبدلاً من النشر والفضيحة تدفع الفلوس بعضها نقدًا وعدًا وبعضها فى صورة إعلان، وهكذا تكسب المجلة - أو الجريدة - طالعة نازلة كالمنشار. إذا طلعت كسبت وإذا نزلت كسبت، لهذا تستمر هذه الصحف في الظهور من لندن وباريس وقبرص.. وربما من كماتشاكا. المهم أن يكون لها مكان تطبع فيه، لأن الطباعة والنشر هى التى تهم.

تلك هى الصحافة السوداء حقًا. صحافة المجاهدين الذين قضيتهم الفلوس، والفلوس التى تعز على الرجل الشريف لا تعز على غير الشريف، والمرأة الشريفة تشقى لتعيش، وغير الشريفة تستريح لتعيش، وكل الفرق فى نظرتك إلى الشرف أو إلى عدم الشرف.

ولأن هذه الصحف والمجلات كثيرة الإعلانات أنيقة الطباعة فإن (البرىء المغفل) يظن أنها رائجة السوق واسعة البيع، فيدفع لها بسخاء لكى تنشر عنه، ومادام قد دفع لها بسخاء فهو سيدفع لها بسخاء أكثر لكيلا تنشر عنه، وتلك هى الحياة (ولا أقول المدرسة قط). الصحيفة التى أزهرت وأينعت فى بيروت، فهناك يا مولاى أينعت وأزهرت صحف قاتمة السواد.

وظهر كتاب صحفيون يكتبون بلغة (أكلونى العفاريت) وأسماؤهم أشياء مثل إدوار معلوف أو جورج متلوف أو رينيه منتوف أو كرزه مزلزل أو جيعة مغيغب، وهذه مجرد أمثلة خطرت بالبال ولا صلة لها بالواقع، وهؤلاء هم الذين تصدوا - فى غياب الصحافة المصرية عن الأسواق العربية - لكى يعلموا العرب، وينوروا العرب، وهم دائمًا أساتذة أخلاق واساطين شرف ويا ويلك من المرأة التى لا تتحدث إلا عن الشرف.

وواحد من هؤلاء مثلاً يكتب فى صحيفة من تلك قبل مؤتمر فاس يقول: (لو كنت جنديًا إنكليزيًا أو فرنسيًا أو إيطاليًا أو حتى مالطيًا

لعصيت أوامر قيادتي العليا، ورفضت الالتحاق بالقوة المتعددة الأجناس التى سينسونها على خطوط النعاس بين مصر وسيناء بعد الانسحاب الإسرائيلى الكامل فى نيسان / أبريل القادم من آخر شبر من الأراضى المصرية).

لو كنت جنديًا فى أحد جيوش هذه الدول لفررت إلى ليبيا مثلاً وأخذت جائزة، أو إلى سان سلفادور أو غواتيمالا أو جنوب أفريقيا أو إلى مكان آخر فيه بنويش (كذا) إلا على خطوط التماس فى سيناء لأن خطوط التماس فى بيروت بين الكتائب والردع أرحم ألف مرة فعلى الأقل تعرف لماذا أنت هناك. تعرف مثلاً أن عليك أن تطلق كل نصف ساعة رشقًا من الدوشكا ثم ترتاح ٣٩ دقيقة، وفى الليل تطلق رشقا كل ١٥ دقيقة ثم ترتاح ١٤.

أما على خطوط التماس المصرية الإسرائيلية فماذا أفعل؟. مادام الطرفان متفقين وأكثر من متفقين، مادام يحق للإسرائيليين أن يدخلوا وقت يشاءون! ومادام لا يحق للفلسطينيين الدخول إلى الأراضى المحتلة مطلقًا. مادامت سأتصبح يوميًا بسيادة الرائد عبد المعطى عبد العظيم بعد ليلة لا تتمناها لعدوك من شخيره وغطيطه، مادام سيأتينى الكولونيل رافائيل كل يوم عارضًا خدماته ومساعدته للتدليل على مدى كرم الإسرائيليين وتعلقتهم بالسلام.

ماذا أفعل هناك مادام ريغان وبيغن يعرفان مسبقًا ان لا شىء سيحدث حتى القوة المتعددة الجنسيات فى جنوب لبنان أفضل لكثير، على الأقل يتصبح الإنسان بكوفية مرقطة أو بأحد رجال سعد حداد الذى تعب كثيرًا فاستقال.. وعلى الأقل فإن ريغان وبيغن لا يعرفان مسبقًا ماذا سيحدث.

وكفى إلى هنا من خفة دم الأستاذ فيليب برطوش. لأن خفة دم (القلعوط) تكاد تقتل والعياذ بالله.

وكان هذا قبل مؤتمر فاس، ومن المعروف أن دولة عربية كانت تحمل إلى قمة فاس مسودة قرار بتهديد كل أوربا إذا جرؤت إحدى دولها على الاشتراك فى قوة حفظ السلام بين مصر وإسرائيل.

ولا يهم أن المسودة تحولت إلى مبيضة أم لم تتحول، لأن المهم أن صاحبنا قد قبض الثمن.

□□□

هل رأيت الإشارة إلى سعد حداد؟.

إذن فلتعلم أن هؤلاء جميعا سعد حداد؛ لأن سعد حداد يمثل الأمل العظيم عند أولئك الناس، فهو يمثل الحقد الصليبى على المسلمين فى لبنان، ولهذا فهو لا يريد الفلسطينيين هناك، ولأنه لا يريد الفلسطينيين فهو مع إسرائيل قلبًا لا قلمًا، لأن أولئك الصحفيين لا علاقة عندهم بين القلب والقلم قط، فالقلب ملىء بالحقد على المسلمين فى لبنان وفى غير لبنان. أما القلم فهو للبيع.

وعند هؤلاء الصحفيين فإن كل شىء قابل للبيع حتى الوطن. ولبنان نفسه باعوه، باعوه مرة وباعوه مرتين وثلاثًا، ومازالوا يريدون بيعه مرة رابعة وخامسة. وبعد أن باعوه هربوا إلى لندن وباريس ونيقوسيا. ومضوا يساومون على بيع العرب جميعا، وفى فاس لم يستطيعوا بيعه لأن السوق انفضت قبل أن يفتح الدكان، ربما بسببهم.. ولا يعرف إلا الله سبحانه وتعالى مقدار ما دفع لهؤلاء الصحفيين قبل ذلك المؤتمر.

□□□

والآن وقد وقع ما وقع فى فاس، هل تتفتح الأعين يا ترى لترى ولو جانبا من حقائق الأشياء؟.

ولو أن الأقلام التى كتبت فى الصحف عن ذلك المؤتمر كانت نظيفة وباستثناء جرائد الجزيرة العربية – ربما كانت هناك إمكانية لعقد مؤتمر عربى ينفع العرب، ولكن هؤلاء السادة الذين يبيعون مال النبى ضللوا الناس وخدعوا الجميع فكانت النتيجة أن حقائب بعض الدول التى

كانت ستشترك فى المؤتمر كانت مليئة بالمتفجرات. ولكن التوقيت أخطأ وانفجرت القنبلة قبل موعدها.

كم أتمنى أن يفتح العرب أعينهم ويعرفوا أن القلم جهاد وأن صاحبه لابد أن تكون له قضية، وما لم تكن له قضية فهو لص وأفاق.

وفى إحدى هذه المجلات كتب صحفي مصرى نحبه ونحترمه لأنه نشأ تلميذًا فى مدرسة الصحافة الشريفة وتخرج على أيدى الشيوخ ثم أصبح أستاذًا.. كتب مقالاً عنوانه (ملاحظات حول مهنة الكتابة الصحفية).. ومضى يتحدث عن الشرف المهني وجلال القلم لناس لا يعرفون من شرف المهنة إلا ثمن هذا الشرف، ولا يعرفون من جلال القلم إلا ما يؤتيه من مال حرام.

كتب الأخ الطيب وصال وجال، ويبقى بعد ذلك السؤال: ما الذى يجعل القلم الشريف يكتب فى الميدان غير الشريف؟ الجواب يجده الكاتب الأستاذ الذى نحبه فى الصفحة التالية لمقاله: إعلان عن عطر فرنسى! موضع هذا الإعلان كان ينبغى أن تكون فضيحة، والإعلان ثمن عدم نشرها؟..

فلماذا يجرى قلمك النظيف هناك وأنت الحصيف الأريب؟..

لقد عرضوها علينا فأغنانا الله عنها، ولسنا بأذكى منك يا أخى أو أعلم، ولكن أحيانًا يضل الذهن ويشرد الخاطر ويؤذن المؤذن عند قدمى تمثال هبل أو اللات والعزى..